إن الموضوع الذي يسعى هذا الكتاب إلى تجليته أكبر من هذه الأسطر، فهو اهتمام له حضوره ونتائجه ليس في حقل معرفي واحد، بل في حقول معرفية متعددة، وعلى مساحات مكانية مختلفة مثل بعضها نموذج لذلك، اهتمام يلزم أن يعطى له كبير عناية في مجال الغرب الإسلامي، شرط ألا يكون على حساب جوانب وقضايا أخرى من تاريخ هذه المنطقة، وألا يستعجل في إبراز ثماره ونتائجه، نظرا لكونه اهتمام محفوف بالصعوبات المنهجية التي قد يصطدم بها الباحث اللساني والمؤرخ والأثري أثناء قيامهم بعملية ضبط أسماء الأماكن، من قبيل هجرة أسماء الأماكن مع مرور الزمن من موضع إلى آخر، أو تكرار أسماء الأماكن في مواضع متعددة ومختلفة من الغرب الإسلامي، أو اعتماد لغات أخرى غير اللغة الأصلية التي صيغ بها اسم المكان، إضافة إلى ما قد يلحق اسم المكان من تطور دلالي أو تحريف فيلولوجي أو تصحيف إملائي، وهي صعوبات يمكن تجاوزها شرط اعتماد التحليل الفيلولوجي والتاريخي والبحث الأثري لفك لغز أسماء بعض الأعلام الجغرافية.

الكتاب الذي بين أيدينا هو محاولة تأسيسية لموضوع الطوبونيميا في حقبة ومجال محددين، إذ ليس غرضه الإجابة عن كل الأسئلة المبسوطة أو الممكن بسطها، بل هدفه إبراز مساحة هذا الاهتمام، والقضايا المرتبطة به على التمام، والأسئلة الممكن بسطها، والتخصصات الممكن اعتمادها، والمراحل الواجب إتباعها، والآفاق المرجو تحقيقها، بغرض تنزيلها على مجال الغرب الإسلامي، نظرا لمحدودية الاهتمام بأعلام جغرافية هذه المنطقة كأداة في الدراسات التاريخية، ولغنى المجال بأسماء الأماكن ذات المضامين المتعددة، ولعدم ارتقاء الاهتمام بطوبونيميا الغرب الإسلامي إلى مستوى غنى المكان بأسمائه، إضافة إلى أهمية هذا الاهتمام في إماطة اللثام عن بعض الجوانب المظلمة من تاريخ الغرب الإسلامي.

لقد جاء تأليف هذا الكتاب، ثمرة نقاشات متعددة ومتكررة انصبت حول آليات البحث التاريخي، فكانت المقاربة الطوبونيمية إحدى نتائج هذا النقاش، حيث اعتبرت آلية جديدة يمكن اعتمادها لتعزيز نتائج البحث في الدراسات التاريخية وغيرها، مقاربة تصل نتائج البحث في العصر القديم بأخرى في العصر الوسيط، وتحقق التواصل بين الفروع في التخصص الواحد. وهو إصدار ليس من غاياته ضبط وجرد وإحصاء أسماء الأماكن، فذلك جهد دونه الفريق، لكن يمكن اعتباره مسودة لأرضية نظرية لمشروع معجمي تاريخي خاص بأسماء الأعلام الجغرافية في الغرب الإسلامي، وهذا يتضح من خلال المواضيع والقضايا التي تمت معالجتها، حيث سعت الأبحاث المقدمة إلى معالجة ثلاث جوانب من موضوع الطوبونيميا (التعريف، المنهج والعلائق)، اعتبرت مقدمات فقط.

كما جاء هذا العمل، ثمرة جهد جماعي بين باحثين جعلوا من البحث والتنقيب العلمي رسالة لهم، حيث جاءت مقالاتهم المنبثة في ثنايا الكتاب إسهاما قيما، يعرف بالطوبونيميا وأهميتها وخصائصها وأنواعها وبعض مظاهرها، ارتباطا بأدوات البحث التاريخي ونتائج التحري الأركيولوجي، ويقدم ضوابط منهجية تعد أولية لكل آخذ بالمقاربة الطوبونيمية، حيث أشاروا إلى طرق ضبط أسماء الأماكن، طرق سعوا بعرضها إلى لملمة خيوط معاني أسماء الأعلام الجغرافية، وملامسة أصولها وصيغ بعضها، وتاريخ كتابتها...، وذلك بقصد تنبيه الباحثين إلى غنى هذه الآلية، غنا يستدعي ضرورة التعرف على الأعلام الجغرافية من جهة، والبحث في مرجعيتها من جهة ثانية وصلا بين حلقات تاريخ الغرب الإسلامي، وتدقيقا وتمحيصا لبعض فقراته، وتنقيبا عن بعض الإشارات المفقودة من تاريخه، إنها محاولة تبغي وضع ملامح خطة منهجية للوصول إلى موضوع ضبط الأعلام الجغرافية في الغرب الإسلامي. وهذا لن يتحقق إلا باعتماد منهج علمي

صارم يقوم على الدقة في توثيق المعلومات والروايات، والحفر في عمق النص المصدري، والتحليل المركز الساعي إلى البناء النظري عبر نماذج تمثل مظهرا من مظاهر الوعي بالمكان.

وفق الله الباحثين المسهمين في هذا العمل الجماعي الذي يعد إضافة منهجية لمكتبة البحث في تاريخ الغرب الإسلامي، وأعانهم على تقديم المزيد من الأبحاث الجادة، والله ولي التوفيق.

مكناس الزيتون المغرب

الطوبونيميا بالغرب الإسلامي
مقدمات في الفهم

د. محمد البركة

لا يمكن لهذا البحث أن يكون بدعا من البحث التاريخي، لمجرد أنه يناقش مبحثا كان قريبا من الدراسات اللسانية قبل أن تهتم به الدراسات التاريخية، أو لمجرد كونه يبحث في اهتمام علمي جديد يعتبر مدخلا أو زاوية ذات تحديد أكثر، أو لأن العنوان تضمن عبارة الغرب الإسلامي في محاولة لتحديد المساحة التي سيتم التركيز عليها وتناولها، لأن البحث في الطوبونيميا Toponymie بما هي أداة تهتم عموما بأسماء الأماكن أو الأعلام الجغرافية أيا كان مصدرها وتاريخها ومكانها، هو بحث في أحد القضايا التاريخية الهامة التي لزم أن تحظى باهتمام الباحثين، وفي الاهتمام بها تجسيد للعلاقة التي تربطها بالعلوم الأخرى مثل الجغرافيا والتاريخ والأركيولوجيا واللغة، وتجسير لضرورة الوصل بين العلوم أيا كان مصدرها ووجهتها، ففي ذلك تأكيد لتلك العلاقة وتلميح لتقديم الأهم قبل المهم والواصل القريب قبل الواصل البعيد، نظرا للاختلاف الحاصل بين العلوم في علاقتها بالطوبونيميا انفتاحا واستفادة.

والطوبونيميا بما هي اهتمام حديث لا تستقي وجودها من الدراسات التاريخية فقط [1]، بل تؤكد حضورها كذلك من خلال تعدد الكتابة عنها تعريفا بها وإبرازا لأهميتها في الدراسات العلمية والجامعية ذات العلاقة بالدراسات الجغرافية واللغوية والأركيولوجية، فهي تهتم بالتركيز على جوانب جاءت معممة سابقا لتفصل فيها بحثا، أو بالجمع بين العديد من العلوم والتخصصات لتستقي منها معطيات تكون جزئية مع الواحد فتتقوى بالجمع، أو بالتركيز والتعميق في محور وموضوع محدد يتعلق بالمجال أو الأسماء...، إنها اهتمام ينتج دراسات أكثر دقة وفي نفس الوقت أوسع مجالا ومعلومة [2].

على أن اختيار بلاد الغرب الإسلامي كناية على الجغرافيا والتاريخ، يتأسس على الغنى الذي يحفل به هذا المجال على مستوى أسماء الأماكن، أسماء دلت وما تزال تدل على وجود حضارات متعددة

1- أول من اهتم بالطوبونيميا الدراسات اللغوية، وجاءت من بعدها بعض الدراسات التاريخية الأجنبية التي اهتمت بالطوبونيميا ومنها طوبونيميا الغرب الإسلامي، أما العربية فهي قليلة سواء في إفريقية كما هو الشأن بالنسبة لمحمد حسين في كتابه الجغرافيا التاريخية لإفريقية دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت الطبعة الأولى 2004م، أو بالنسبة للأندلس كما هو الشأن بالنسبة المدن الاسبانية الإسلامية ليوبولدو تورس بالباس ترجمة إليو دورو دي لابنيا منشورات مركز فيصل للبحوث والدراسات الطبعة1، 2003م، أو بالنسبة للمغرب كما هو الشأن بالنسبة لأحمد التوفيق في إينولتان منشورات كلية الآداب الرباط، ويبدو أن اهتمام بعض الدراسات التاريخية العربية بطوبونيميا بعض الأماكن راجع للدراسات التاريخية التي أثناء اهتمامها بالكتابة المنوغرافيا كانت مضطرة للوقوف عند بعض أسماء الأماكن وشرحها، وتبيان معناها وكذا دوافع تسميتها (المرجعية)، وهو أمر لم يقتصر على الكتابة المنوغرافيا فحسب، بل جاء واضحا في غيرها كذلك كما هو الأمر عند أحمد التوفيق أثناء تحقيقه لكتاب التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات.

2- أثناء الاهتمام بالدراسات المنوغرافية تعددت أسماء بعض الأماكن، وفي تعددها وتشابهها وربما اشتقاق بعضها من جذع واحد، أثير السؤال عن معنى هذه الأسماء واجتماعها على أصل لغوي أو مرجعية ثقافية وفكرية واحدة، وهل يمكن أن تعبر هذه الأسماء عن تداول معجم واحد. فكان في الطوبونيميا أن قدمت الأداة المساعدة لفهم ذلك.

ومختلفة تعاقبت على المنطقة، فتركت في أسماء أماكنه ما يدل على الحضارة المحلية والرومانية والإسلامية، إنه الغنى الذي يشير إلى تعاقب الحضارات، ويدل على أهمية المنطقة عبر التاريخ، ويبرز قيمتها طوبونيميا، فكما أن الطوبونيميا تعرف بأهمية المنطقة، فإن المنطقة تعرف بأهمية طوبونيميتها.

إن هذا البحث الذي نعرض له اليوم، ليس من غايته التعريف بالأعلام الجغرافية أو حتى جردها، طمعا في صياغة قاموس أو معجم يضم الأعلام الجغرافية ضبطا وتفسيرا وتطورا..، فذاك عمل دونه جهد كبير، يتحمله الفريق لا الواحد، بل غاية ما ننشد من هذا البحث، التعريف بقيمة ضبط الأعلام الجغرافية، وإبراز أهمية الطوبونيميا في الدراسات التاريخية خلال العصر الوسيط، ورسم المساحة الواسعة التي يوفرها مثل هذا النوع من الاهتمام، مع محاولة وضع إطار أساسي يتم وفقه دراسة الأعلام الجغرافية لبلاد الغرب الإسلامي.

فماذا نعني بالطوبونيميا ؟ وما هي معالم أهميتها في الدراسات التاريخية وفي الغرب الإسلامي على وجه الخصوص؟ ما هي القيمة الإضافية التي يمكن أن يمدنا بها مثل هذا الاهتمام؟ هل للطوبونيميا ببلاد الغرب الإسلامي خصائص مميزة لها؟ بل ما هي البنية المرجعية التي تستند عليها خطوة تسمية الأعلام الجغرافية في المنطقة ؟ ثم هل هناك من ضوابط يتم اعتمادها أثناء البحث في الطوبونيميا؟...

المحور الأول: الطوبونيميا المفهوم والاصطلاح

الطوبونيميا Toponymie [3] (أسماء المواقع الجغرافية، الأعلام الجغرافية، أسماء الأماكن، المواقعية والطبوغرافية التاريخية) اهتمام يُعنى بدراسة أسماء الأماكن وأصولها، والبحث في معناها وتفسيرها، ورسم تحولاتها على مر العصور أو بعض العصور، وتحديد قيمتها التراثية والفكرية، وملامح التغير في أنساقها اللغوية. فإذا كان البعض يعتبر أن دراسة أسماء الأشخاص أو الألقاب سواء كانت حقيقية أو وهمية Anthroponymie جزء من دراسة الأعلام أو الأسماء Onomastique، وأنها فرع من اللغويات، وكذلك بالنسبة لدراسة أسماء الآلهة Théonymie، فإن دراسة أسماء المواقع الجغرافية يبقى بدوره جزء أو فرع من أسماء الأعلام له علاقة باللغة المحلية (تامازووت [4]، تاكنيت [5]، تاغزوت [6]...) أو العربية (حومة العرب [7]، دور بني هاشم [8]، منازل الأمصار [9]...، أو غيرهما، باعتبار مجال اهتمامه أولا

3- الطوبونيميا «toponymie» كلمة تأخذ معناها من كلمتين الأولى طوبو«topos» التي تعني المكان وأنوما «onuma» التي تعني اسم، والطوبونيميا أصناف: فهناك الأرونوميا «oronymie» وتهتم بدراسةأسماءالبال، والهيدرونوميا«hydronymie» وتهتم بدراسة الماري والمسطحات المائية، وهناك الميكروطوبنيميا«micro» وتهتم بدراسة المار

4-اسم مكان شائع بين أغمات وسوس، ومعناه بداية العقبة. ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، ط 2،1997م:129 (الهامش).

5-اسم مكان متداول غير بعيد عن بني ملال، ومعناه منخفض به بساتين. ابن الزيات، التشوف: 108 (الهامش).

6-اسم مكان يقصد به قرية بالقرب من بني ملال، ومعناه الأرض ذات الخصب. ابن الزيات، التشوف: 220 (الهامش).

7- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: 208. بطلبيرة نسبة لبني عوف بن كعب بن سعيد بن زيد مناة الذين أقاموا بها إلى حدود القرن 5 هـ/11م.

8- وهي دور بقرطبة. ابن بشكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989م: 297. 1/183.

9- وهي منازل بسرقسطة. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، :.182/1.

واسع جدا، يُعنى بدراسة أسماء الأماكن الآهلة وغير الآهلة بالسكان على اختلافها، ويعنى بالأسماء المرتبطة بالأرض والأنهار والمسالك والطرقات كما السفوح والمرتفعات، وثانيا لأنه لا يكتفي بالنظر في أسماء المجالات الكبرى، بل يعنى كذلك بأسماء المجالات الصغرى مثل أسماء بعض المنازل أو الحدائق أو المساجد أو القصور أو الفنادق...، وثالثا لأنه لا يقتصر على أسماء المستوطنات البشرية أو التاريخية أو المناطق الإدارية، بل يعنى بأسماء الأنهار والبحيرات والبرك والخلجان البحرية، وأسماء الجبال أو السلاسل، وأسماء الغابات والقلاع والمزارع... [10]، وهذا ما يجعله تخصصا بالغ الأهمية [11].

وإذا كانت الطوبونيميا تعنى بدراسة الأعلام الجغرافية، باعتبارها أسماء تدل على معنى مستقل في الفهم غير مقترن بحقبة محددة، بل مقترن بزمن تداول اللغة التي صيغ بها والعناصر البشرية التي استوطنت بها والرصيد الحضاري الذي تختزنه، فذلك لأنها تقر بأن أسماء الأماكن لها معنى لغوي وتاريخي، فهي تعتبر أن لكل مكان اسم أو أسماء متعددة ملحوقة به، صاغتها عوامل مختلفة طبوغرافيا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا..، إذ من السهل النطق بالاسم إذا كان مشكولا، لكن من الصعب تحديد تاريخه وأصله ولغته ودلالته، لأن

10- Jean Loicq, « La toponymie ou science des noms de lieux Son application au patrimoine celtique de l'Ardenne », Folia Electronica Classica (Lauvain-La-Neuve), n° 5, 2003, p. 2 .

11- لم نعمد لنجرد العديد من أسماء الأماكن التي لها علاقة بعنوان من هذه العناوين خشية الإطالة، ويمكن أن نحيل القارئ على فهارس الأماكن في العديد من المصادر الوسيطية على اختلافها وتنوعها.

أسماء الأماكن غالبا ما تكون ذات منحى وصفي دقيق داخل إطار جغرافي وتاريخي يسعى إلى وصف تطورها باستخدام أقدم وأصدق الوثائق، وهذا يدل على أن أسماء المواقع الجغرافية وأصولها هو فرع من اللغة، التي تُكسب الاسم معنى مزدوجا (وصفي أو تاريخي) يراعي جانب تطور المعنى عبر الزمن، ولغوي يرتبط بالاشتقاق اللغوي لأصل الكلمة.

إن اهتمام الطوبونيميا بالبحث في أصول معاني أسماء الأماكن وضبط رسم الأعلام الجغرافية، وتطورها أو تغيرها أو بقائها عبر الزمان، هو النتيجة التي يهدف إليها هذا الاهتمام. ذلك بأن أهمية الطوبونيميا تكمن في النتائج المحصل عليها من عملية البحث، فقد تكون بعض أسماء الأماكن متداولة، لكن مجهولة المعنى، حيث يحظى اسم الدال بالاهتمام على اسم المدلول، مدلول بإمكانه أن يرسم ملامح لغة وثقافة وفكر مجتمع من المجتمعات، من خلال ما تعكسه هذه الأسماء من مفاهيم يكون لها امتداد تاريخي عميق.

المحور الثاني: أهمية الطوبونيميا بالغرب الإسلامي

إن الاهتمام بالطوبونيميا ليس فعلا استنجاديا يبغي تجاوز النقص الحاصل في المادة المصدرية أثناء تناول العديد من القضايا، وليس وصفة سحرية تهدف إلى حل العديد من المشكلات المطروحة والفراغات الموصوفة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعمراني لبلاد الغرب الإسلامي، وليس مشجبا يعول عليه للإجابة كليا عن الغموض الكائن والوارد في بعض الحلقات المفقودة من تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي،

بل لأن الطوبونيميا نافذة جديدة أو منظار جديد لدراسة العديد من القضايا التي أصبحت مسلمات في تاريخ الغرب الإسلامي أثناء البحث مع قدر محدود من التفاؤل، فهي أداة لمعاودة بسط السؤال من جديد، سؤال له أهميته في تعزيز البناء العلمي لكتابة تاريخ بلاد الغرب الإسلامي.

والطوبونيميا بما هي انفتاح على قضايا قديمة برؤية جديدة تعطي الأولوية للاسم وأصله ضبطا ودراسة وتفسيرا، ليست مفصولة البحث عن العلوم الأخرى، خاصة تلك التي لها علاقة بالبحث التاريخي مثل علم الأنثروبولوجيا والآثار والألسنية والاجتماع..، حيث تضم كتب المسالك والرحلات العديد من أسماء الأماكن مجهولة الموقع والموضع، أسماء لم يفكر في البحث عنها وتفسيرها وتحليلها إلا بمقدار توظيف النص الوارد فيها، علما بأنها نصوص بعضها حقق منذ عشرات السنين.

كما أن العجمية الواضحة في أسماء بعض المواقع، أو الأمازيغية البينة في أسماء العديد من الأماكن، لم تضبط من طرف بعض المؤرخين والجغرافيين العرب أثناء كتابتهم لها من جهة، حيث جاءت مصادرهم المتحدثة عنها مضطربة في الكتابة والنسخ، مما كان دافعا للبعض لتعريبها والبحث عن اللفظ القريب منها نطقا. ومن جهة ثانية يلاحظ أن بعض هذه الأسماء حورت عن أصلها بحكم أمرين اثنين، إما لتغليب النطق الشفوي الذي قد يؤدي إلى الترخيم أو الاختزال أو الإدغام أو حتى الإقلاب لحروف الأسماء، وإما لفقدانها لخصائص التسمية التي كانت قد ارتبطت بقبيلة أو حرفة أو نبات أو مناخ أو موضع أو موقع.. هو مصدر تسميتها.

كما أن أسماء بعض المواقع العجمية لم تكن لتطغى في نعتها عند بعض المؤرخين أو المؤلفين خلال العصر الوسيط، لذلك وجدناهم لا يذكرونها إلا بأسماء محلية متداولة بين أهاليها، سواء كانت هذه الأسماء قديمة عن التسمية العجمية أو حديثة، لكنها غلبت لخصوصيتها المحلية، أو أنه تم اعتماد الاسم الأعجمي لكن مع تحريف لنطقه حتى يسهل تداوله.

كما أن التعرف على اللغات التي حلت بمجال محدد في بعض الأحيان لا يتحقق إلا بضبط الأعلام ومنها الأعلام الجغرافية، إذ غالبا ما تترك اللغة بصماتها على أسماء الأماكن، فيحتفظ حينها اسم المكان بآثار اللغة التي صيغ بها، دون تجاهل ملامح التغيير والتحريف التي مست الاسم جراء التداول وتبدل الأقوام والأجيال وطول الزمن.

لذلك فالبحث في الطوبونيميا هو بحث في المصطلح التاريخي وضبط له، انطلاقا من كونه يبحث في أصل الاسم ومعناه أو معانيه، وتاريخ تسميته ومبررات اتخاذه، ذلك أن أسماء الأعلام الجغرافية لم تكن لتتخذ اعتباطا أو بدون دوافع أو مرجعية، بل غالبا ما كانت متصلة بأسباب، البحث عنها يدلل الوصول إلى معاني الأسماء ومضامينها وعصورها.

ولكي يتحقق ذلك نقول، إذا كان البحث في أسماء أماكن إفريقيا الشمالية يقتضي من الباحث في التاريخ القديم ضرورة امتلاك اللغة الإغريقية أو اللاتينية لفك رموز بعض الأسماء إضافة إلى لغات أخرى، فإن الباحث في طوبونيميا الغرب الإسلامي يستلزم ضرورة اعتماد

اللغات المحلية بالإضافة إلى نتائج البحث في التاريخ القديم، لكونها هي الأداة المبينة والمساعدة لفهم أصل هذه الأسماء والتغيرات التي لحقتها.

على أن البحث في صيرورة تطور أسماء الأماكن عبر الزمن، وما يعتريها من تغييرات وتشوهات أثناء نقلها من نسقها اللغوي الأصلي إلى أنساق لغوية أخرى (لاتينية أو إغريقية أو عربية)، يحيلنا ضمنا إلى مقاصد اعتماد الطوبونيميا للوصول إلى ضبط وفرز الأسماء الأصلية للأماكن وضبط صيغها الأصلية، بل وتقويم الاعوجاج والتشويه الذي لحقها أثناء عملية النقل والتداول.

كما أن الاعتماد على الطوبونيميا لفهم بعض الحلقات المفقودة من التاريخ خطوة لها نتائج هامة، ذلك أنه لا يمكن أن نتصور تاريخا بدون مكان، فالمكان هو المجال المستوعب لحركة الإنسان في الزمان عند تفاعله مع الفكرة، مما يعني أن السعي للتعرف على أسماء الأماكن، خطوة تسهل عملية فهم طبيعة هذه الحركة وآثارها، وبالتالي فهم التاريخ. فإذا كان التاريخ حركة على المجال، فلا يمكن للمجال أن يكون مبهما، لأن الفهم لهذه الحركة لن يكون سليما، وهذا يعني أن اسم المكان يقرب فهم طبيعة الحركة وآثارها، أي أنه يقرب من التعرف على التاريخ.

والاعتماد على الطوبونيميا للبحث في تاريخ الغرب الإسلامي، هو اعتماد على بوابة جديد لبحث يعطي الأولوية لهذه الأسماء على غيرها، أولوية لا تتنكر للسياق والصياغة والمعلومة، ولا تتجاهل النص والمصدر والوثيقة، ولا تتردد في اعتماد نتائج البحث التاريخي

واللغوي...، بل تزيد على ذلك باعتماد علوم أخرى مكملة تحاول تفسير وتحليل هذه الأسماء اعتمادا على الاكتشافات الجديدة للمواقع الأثرية ببلاد الغرب الإسلامي. لذلك فاعتماد المقاربة الطوبونيمية في الحقل التاريخي، يساعد على ضبط الأعلام الجغرافية والقبلية المتصلة بها، وذلك انطلاقا من مراجعة ما ورد منها في المادة المصدرية.

وإذا كانت هذه المقاربة الطوبونيمية تمكننا أولا من وضع قائمة بأسماء الأماكن والقبائل التي سكنت بلاد الغرب الإسلامي، فتساعد على أنجاز معجم يوحد المصطلحات التاريخية لبلاد الغرب الإسلامي على قاعدة أسس علمية سليمة، فإنها تساعدنا ثانيا للوقوف على معالم التوطين القبلي لبلاد الغرب الإسلامي، بل وتمكننا ثالثا من حسن قراءة الخرائط، إذ الأعلام الجغرافية مكون رئيس للخرائط التي لا تتحدد قيمتها إلا بتوطين موقعها وموضعها، فصناعة الخرائط تعد الأكثر تعاملا مع الأعلام الجغرافية.

والباحث في الدراسات التاريخية كما الباحث في الدراسات الأركيولوجيا غالبا ما تستوقفه أثناء البحث العديد من الأسماء الواردة في هذه الخرائط (الخريطة الطبوغرافية، الخريطة الأثرية..)، فإذا كانت الخريطة الطبوغرافية منجزة الحصيلة، لكونها معتمد وسند المؤرخ والأركيولوجيا من جهة، ولكونها تضمنت تحديدا لمواقع ومواضع جغرافية أو مكانية مع ذكر لأسمائها من جهة أخرى، فإن الخريطة الأثرية لا تزال محاولاتها في الانجاز قاصرة خلال الحقبة الوسيطية عن التعريف والتحديد بكل الأعلام الجغرافية.

خلال العهد الروماني

على أنه إذا كانت خارطة المدن والمواقع تكاد تكون مكتملة، فإن العدد الكبير من المدن والمواقع الواردة ذكرها في كتب المسالك والجغرافيا والرحلات تظل مجهولة، حتى ليخيل للمرء أن التعمير والتمصير لم يكونا ذا أهمية أو شأن خلال الحقبة الإسلامية الوسيطية، وهذا لا يعني أن ما تم انجازه في الخريطتين تام وصائب، بل إن العديد من الأخطاء تسربت إلى الخرائط الطبوغرافية والأثرية، وهي أخطاء جاءت نتيجة كون أغلبها أنجز بدعم من جنرالات الاحتلال الفرنسي منذ قرن من الزمن، حيث دأبت هذه الخرائط على وضع علامة (R R) مآثر رومانية، في محلها، دون اعتبار للمسح الشامل والتحري الميداني للأسماء[12].

وإذ نقر بكون هذه الخرائط لها قدم السبق والبداية، فإن إتمام المحاولة الأولى وتعزيزها بما تم العثور عليه أو ضبطه أو التعرف عليه اعتمادا على تقنيات وعلوم أكثر دقة من ذي قبل لم يتم إلى حدود الآن، وهذه مسؤولية تلقى على عاتق البحث العلمي اليوم أيا كان مصدره، نظرا لكونها عملية تتداخل فيها مجالات معرفية مختلفة، ومنها الطوبونيميا، مما يبرز جانب الأهمية التي لها النوع من البحث.

على أن مقارعة النص المصدري بالأثري، بحثا عن تحديد دقيق للمواقع المجهولة والمسالك المنثورة والمنشآت المستورة والمعالم المبتورة، هو ما ييسر الإجابة عن بعض الأسئلة العالقة التي عجزت النصوص عن فك رموزها إما لقلتها وضعفها، أو لغياب دقتها وتفصيلها، مثل

12- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية: ٩-١٠.

سؤال القدرة على إنشاء موسوعة مدن الغرب الإسلامي، حتى يتضح حجم إسهام الحقبة الوسيطة في التعمير والتمدين، وسؤال حقيقة القول بوجود خراب عمراني حضري ناجم عن الانتشار البدوي بمنطقة الغرب الإسلامي[13].

هذا وتبقى العديد من الجوانب القادرة على إبراز أهمية الطوبونيميا دون الذكر، منها على سبيل المثال أهمية الطوبونيميا في تحقيق وقراءة العديد من النصوص الجغرافية والتاريخية والفقهية...، إذ كثيرة هي الأعلام الجغرافية التي تذكر في مثل هذه النصوص، وضبطها في بعض الأحيان يكون مفتاح فهم النص، مما يبرز قيمة ضبط الأعلام الجغرافية في الكتابة.

المحور الثالث: أبعاد البنية المرجعية لطوبونيميا الغرب الإسلامي

تتعدد معالم البنية المرجعية للأعلام الجغرافية، وفي تعددها يبرز جانب التفاعل بين أبعاد عدة لهذه البنية في صياغة اسم المكان، مما يعطي للبحث في هذا الموضوع والكتابة عنه، جانبا من التعقيد والتبسيط في الوقت نفسه، إذا لم ينضبط بضوابط محددة ومعلنة متفق عليها.

والمقصود بالبنية المرجعية هي تلك البنية الداخلية الحافزة لاختيار الاسم، أو لنقل الأساس المرجعي لاختيار الاسم وتداوله والاحتفاظ به، ذلك أن التعمق في ضبط البنية الداخلية لاختيار الاسم، هو تعمق

13- م.ن: 10.

في عناصر الهوية الثقافية للمكان، لذلك قلنا، إن البنية المرجعية للأعلام الجغرافية، هي البنية الثقافية العميقة التي استلهمت منها المفاهيم والتصورات والرؤى الفلسفية جذورها، فاتخذت من الأسماء مظهرا متجليا، ومن أسماء الأماكن معنى معبرا، أعطاه طاقة تعبيرية توافق عليها الناس في تداولهم ونعتهم للمكان عبر التاريخ، أو تم تغييره لدافع من الدوافع المتصلة سواء بتغير البنية المرجعية الناظرة لاسم المكان، أو بوجود حدث غالب حواه المكان.

على أن البحث في أبعاد هذه البنية وأثرها على أسماء الأماكن، هو بحث في العناصر المكونة لها، عناصر تمثل أبعادا لمرجعية ليست مطلقة، بل جامعة قد تستثني خصائص العديد من الأسماء، نظرا لغياب جرد كلي لأسماء الأماكن بالغرب الإسلامي.

ومن بين أبعاد البنية المرجعية التي تحيلنا عليها دراسة الأعلام الجغرافية المتوفر ذكرها في بعض المصادر الوسيطية، هناك البعد اللغوي بما هو بعد مرتبط باللغة التي صيغ بها الاسم أول مرة، وبما هو مظهر من المظاهر التي تكشف عن حجم التأثير الذي لحق الاسم أثناء انتقاله من لغة إلى أخرى، والتحريف الذي -يبدو أنه- تعرض له أثناء التداول ترخيما أو إدغاما...، وهناك البعد الجغرافي بما هو مجموع الصفات المظهرية التي تحلى بها المكان [14]، أي مجموع الأشكال والوحدات والألوان التضاريسية والجهات والظروف المناخية، والألوان والأنواع النباتية، والمعادن والأسماء الحيوانية، ثم هناك البعد التاريخي بما

14- إبراهيم موسى الزقرطي، أسس الأسماء الجغرافية: 37.

هو مجموع آثار حركة الإنسان في المكان، أي مجموع الأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية والمظاهر الإنسانية، والطقوس الدينية والنتائج الحضارية التي وقعت بالمكان، بل ومجموع القبائل والتجمعات البشرية التي استقرت بمكان ما، حيث أخذ المكان اسمها أو من اسمها أو اسم أحد أفرادها، لكنها مع الزمن لم تعد تحيل على الحدث أو القبيلة أو العشيرة أو الفرد بل صارت تحيل على المكان بشكل تلقائي ومباشر.

إن دراسة هذه الأبعاد المرجعية الثلاث أثناء ضبط العلم الجغرافي، من شأنه أن يبرز الشخصية الثقافية والهوية الحضارية للمكان وتطوره، بل ويعطي صورة دالة عن القيمة التاريخية والمستوى الحضاري للمكان، إنها مؤشرات الفعل الحضاري للإنسان كما تنضح بها أسماء الأمكنة.

الطوبونيميا والبعد اللغوي للمرجعية :

إن أهمية أسماء الأماكن تكمن إما في إعطاء فكرة أولية عن الصفات المظهرية للمكان أو الآثار البشرية به، وإما أنها تتمم معاني البحث عن منطقة محددة وعن أهلها وبعض من تاريخها وكذا عن لسان سكانها، وإما أنها تكشف عن جوانب مضمرة بمحلها سواء ما تعلق بعمارة أو قبيلة أو ضريح أو مسجد أو تجمع أو مقبرة...، أهمية لن تنقشع حقيقتها، ولن تتحقق وعودها إلا بالاستعانة وتوسل علوم عديدة تكون أدوات للبحث في هذا الميدان.

وتركيز بعض الباحثين في ضبط الأعلام الجغرافية على العلوم اللسانية فقط، منحى صائب، لكنه -برأينا- غير تام لضبط المعنى الحقيقي لاسم المواقع الجغرافية، إذ على قدر وجلال تسلح الباحث

باللغات المحلية والوافدة، فإن الأمر غير تام وغير موصل إلى الترجيح الصائب، إذ الخطوة تقتضي ضرورة الاستناد على معطيات وأبحاث تاريخية واجتماعية واقتصادية...، أي مجموع العوامل المسهمة في تكوين ثقافة منطقة أو مكان معين، بل ومجموع المؤثرات التي تعرض لها في تاريخه فكانت عاملا مسهما في تشكل ثقافته بل وفي اختيار وتحديد لسانه، إذ الاسم هو نتاج تفاعل العديد من العوامل أو الأبعاد، لا يرجع أساسه فقط للغة، وإن كانت هي اللسان المتحدث به والمتداول في المنطقة والمعبر عنهما.

فأسماء الأماكن المتداولة اليوم هي في بعض منها أسماء قديمة، وصلت نتيجة للتطور الحاصل في أسماء الأماكن الأصيلة، إما بالحفاظ عليها أو تحريفها دون قصد أو بقصد، وإما لصعوبة نطقها وتداولها، فجاز ترخيمها أو إدغام بعض حروفها...، المهم أنها ظلت حاضرة بصيغة من الصيغ، تحكي عبر الاسم بعضا من تاريخ المكان.

والبحث في الأسماء القديمة للأمكنة أمر صعب من عدة أوجه:

أولها: غياب عملية التدوين المحلي المواكب لخطوة اختيار الاسم وتداوله، عملية -نرى أنه- بإمكانها إن وجدت أن تحيل أسماء الأماكن إلى أصولها وأسباب اختيارها، لذا يكون البحث عن الأعلام الجغرافية في الوثائق والمصادر خطوة أولى لتحديد ظرفية ظهور الأسماء، والتذكير بمعانيها وأسباب تسميتها في سياقها الأصلي أو القريب منه.

ثانيها: إن عملية التدوين البعدية لأسماء الأماكن ضمن نصوص مختلفة، جعلها تخضع لسياق زمان تدوينها، ولقدرة المؤلف على جمع

فهم لفظها واستيعاب معناها دون تحريف أو تحويل، بصيغتها الأصلية التي اختير لها، مما نتج عن ذلك تكرار الأسماء على أمكنة مختلفة، دون ضبط السوابق منها واللواحق من جهة، ودون ضبط الصيغة الأصلية للاسم، مما يستدعي ضرورة شكلها أي رسمها بالحركات، حتى يتم النطق بها صحيحا.

ثالثها: إن وجود اسم المكان مع تداوله أو ضعف تداوله يرجع إلى قربه أو بعده من اللسان المحلي لساكنة المكان خلال أزمنة مختلفة، إذ أن ضعف تداول هذا اللسان اليوم في المكان عينه، لا يعني أنه كان منعدما عند صياغة الاسم واختياره، بل قد يكون متداولا في زمانه، لكن طبيعة التحولات والهجرات البشرية أضعفت من تداوله وأبرزت لسانا آخر هو لصيق بعناصر أو تركيبة بشرية أخرى.

لذلك يصعب الجزم بإلحاق اسم مكان محدد بلغة محددة، لأنه قد يكون اسما وافدا وقد تكون اللغة وافدة، فيحمل المكان اسما وافدا رغم اختلافه عن لسان أهل المكان المستقرين به، أو قد يحتفظ المكان باسمه الأصلي رغم اختلاف لسان الجماعة الوافدة المستقرة بالمكان، أو قد يتغير اسم المكان مع حلول جماعة أخرى بالمكان نفسه، على أن هذا التغيير المعلن هنا قد لا يكون كليا، بل قد يكون جزئيا، إما بإضافة حرف أو حذف آخر وغير ذلك.

وهذا يوضح أن اسم المكان قد تختلف أصوله اللغوية مرات عديدة عبر العصور والحقب التاريخية، مما يعطي للاسم صعوبة في الضبط وتعددا في الاحتمالات الواردة لمعناه، وهو أمر لا يكون منضبطا إلا

عند الإلمام التام باللغات المتعاقبة على المكان، أو الاستعانة بمن له علم بذلك، ما دام أن اسم المكان له مرجعية لغوية في المبتدأ والمنتهى.

إن طبيعة البحث في ضبط الأعلام الجغرافية والأسماء الأصلية للأماكن، تقتضي ضرورة الاستعانة بعلوم ومعارف عدة، وذلك بقصد تأمين عملية ضبط الأعلام الجغرافية، حتى لا تنحرف عن قصدها العلمي الساعي للبحث عن الحقيقة، لا البحث عما يعزز قومية أو نزعة معينة.

ذلك أنه قد انتصب للبحث في الأعلام الجغرافية بعض الباحثين الذين حاولوا إبراز البعد الأمازيغي للأسماء، إما بالدعوة للعودة إلى أصلها بحسبهم، بما أن أصلها أمازيغي تعرض للتعريب الذي هو خطوة نحو التحريف، أو أنها حرفت عن أصلها أثناء النطق باستعمال اللسان العربي، فأصبح اسم المكان المتداول قريبا من هذا بعيدا عن ذاك.

وهذه الخطوة في التأصيل اللغوي بنظرنا، قد تستعدي فئة أخرى من الباحثين من تيار التعريب للبحث في أسماء الأماكن وإبراز جانب العربية فيها، وأن أصلها من العربية لكنها حرفت أثناء التداول عن أصلها، وتيار ثالث يدعي أن أصلها روماني أو أقدم من ذلك. وبين هذا وذاك يضيع ضبط اسم المكان، بل يتبدد الهدف من البحث في ضبط الأعلام الجغرافية، ليتحول إلى نزاع عن الهوية التي قد يدعي الواحد امتلاكها، وهي في كل الحالات قريبة منهم، لكنها غير منتسبة للأول وحده ولا للثاني وحده وهكذا.

والرأي الراجح عندنا، هو أن في تسمية المكان سواء باللسان العربي أو باللسان الأمازيغي أو غيرهما بحسب الأصول العلمية التي قد تخفى

على الباحث العادي إلا الدارس الأكاديمي المنضبطة بشروط الحياد، هو أن في توالي تسميتها بأكثر من اسم تأريخ للمكان ولاسم المكان، الذي لا ينبغي طمسه بالتعصب لهذا الجانب أو ذاك، أو بالتأويل لحساب هذا الطرف أو ذاك.

إن الإلمام باللسان الأمازيغي أثناء البحث في الأعلام الجغرافية في الغرب الإسلامي أمر لازم، لكنه لا ينبغي أن يحجب عنا ضرورة التمكن كذلك من اللسان العربي وغيره من اللغات التي تعاقبت على المنطقة، وعمرت قليلا أو كثيرا، كما أنه لا ينبغي الرجوع إلى المتداول من الأسماء فقط لضبط الأعلام الجغرافية، بل الأمر يقتضي الرجوع إلى المصادر التاريخية أو الوثائق على تنوعها واختلاف حقب كتابتها. فالرجوع مثلا للسان الأمازيغي لفك معاني أسماء الأماكن، يحيلنا في جانب منه إلى الكثير من الدلالات المرجعية، فإذا كانت بعض أسماء الأماكن عادة ما تبدأ بالألف مثل «إيميطر» (الرباط أو الثغر) [15]، «أدار» (الدار) [16]، «أدوز» (الملجأ أو المخبأ) [17]، «إيغيل أو إيغير» (الذراع) [18]، «إيفغل أفوغال» (المكان المرتفع) [19]، فإن أسماء أمازيغية أخرى لأماكن مختلفة تبدأ بالتاء «تاكنيت» (المنخفض) [20]، «تغانيمين» (القصب)، «تامازووت» (بداية العقبة أو المرتفع) [21]، «تازكّاغت» (الأحمر)، «تازاكورت» (الجرف الصغير

15-ابن الزيات، التشوف: 113.
16- م.ن: 350 .343.
17- م.ن: 250.
18- م.ن: 161.
19- م.ن: 183.
20- م.ن: 108.
21- م.ن: 129.

أو البناء بالحجارة الصغيرة) [22]، وهذا راجع إلى التنوع الحاصل في اسم المكان. على أن هناك أسماء أماكن أخرى تبدأ بغير هذا، إلا أنها عند بعض الباحثين قد حرفت عن أصلها، فمثلا «دكالة» [23] أصلها حسب البعض «إيدوكالن» أو «أكالن» أو «إدركالن» [24]، «ونكيلة» أصلها «إيونكيلن» [25]، «درعة» أصلها أدرا (العميق) [26]، «شيشاون» أصلها إيشيشاون (صغار الدجاج) [27]، كما أن هناك أسماء أماكن ذات صيغة موحدة إلا أنها قليلة مثل «أزرو»، «سبو»، «صفرو»، «دبدو»، «وكرو»...

صحيح أنه وجب التحذير أثناء البحث الطوبونيمي من الاشتغال على أسماء أماكن محرفة، إما بحذف الألف وإضافة التاء المربوطة في الآخر، أو اختصارها بما يناسب الإملاء العربي أو غيره، لكن ليست كل الأسماء محرفة، بل هناك بعض أسماء الأماكن غير أصيلة، لذلك وجب البحث في الأصل اللغوي للتسمية بالبحث عن التحريف الذي لحقها رسما أو نطقا أو هما معا، ثم بالبحث عن مدى تناغم اسم المكان مع طبوغرافية المكان، ونوع غطائه النباتي، ومعالم تراثه المعماري، وأحداث رصيده التاريخي...

وإذا كان بعض الباحثين يعتبرون أن دلالة المصطلحات الأمازيغية هي أبرز المفاتيح لفهم مختلف تفاصيل الأحداث التاريخية والوقائع

22- م.ن: 158.

23- ابن عذاري، البيان المغرب: 19/4. 76.

24- ابن الزيات، التشوف: 114.

25- م.ن: 85.

26- م.ن: 158. ابن عذاري، البيان المغرب: 11/4-15.

27- م.ن: 85.

الاجتماعية في سياق تفاعلاتها المتعددة مع المجال والفضاء الذي كان مسرحا لها [28]، فإن هذا التعميم يقتضي ضرورة حجبه، لكون هذه القاعدة لا تتعلق بالمصطلحات الأمازيغية وحدها، بل بكل المصطلحات كيفما كان أصلها اللغوي، مما يحتم إلزامية التعرف على جميع اللغات التي مرت بالمكان الواحد، من أجل تحديد أصل الاسم، هل يعود إلى اللغة الأمازيغية أم يعود إلى لغات بائدة أم يعود إلى لغات لازالت حية.

كما يحتم هذا، الاحتياط في التعاطي مع بعض أسماء الأماكن بصيغة كونها في الأصل تعود إلى أصل واحد ودونها اللغات أو اللهجات الأخرى، وحجب تلك الأحادية الغير محمودة في البحث، وخاصة أثناء محاولة ضبط الأعلام الجغرافية، لأن هناك من أسماء الأماكن من تسمت بالعربية منذ البداية، وهي أسماء عديدة وموجودة ليس في الأندلس فقط، بل حتى في افريقية والمغرب.

كما أنه وجب الانتباه إلى أن العديد من أسماء الأماكن المتفق على أصلها (عربية أو أمازيغية..)، ليس لها معنى ودلالة واحدة عند محاولة ضبطها، بل قد يكون لها معاني عدة، فكلمة دكالة المعربة كتابة أو رسما بالتاء المربوطة في الأخير، يرجع محمد شفيق ومعه محمد الفاسي أصلها إلى كلمتين: «دو» أي تحت و«أكال» أي الأرض في اللسان الأمازيغي، أي بمعنى الأرض المنخفضة، وعند مقارنتها بطبوغرافية السطح، نجد بالفعل سطحها منخفض مقارنة بالمناطق المجاورة. لكن هذا المعنى لا يرجحه باحث آخر، على الرغم من الاتفاق بكون أصلها أمازيغي، فأحمد

28- محمد زاهد، الطوبونيميا الأمازيغية من خلال بعض المصادر التاريخية، جريدة تاويزا، عدد 139، نونبر 2008: 14.

توفيق أثناء تحقيقه لكتاب «التشوف إلى رجال التصوف» يرجع أصلها إلى «إيدوكلين» أو «إيداوكلن» أو «إيدركالن»، وهو ما يجعله متفقا مع محمد شفيق في أحد احتمالاته لمعنى الاسم، نظرا لأن فعل «إدرا» يعني بالأمازيغية (المنخفض أو العمق)، كما يرجع في احتمال آخر أصل دكالة إلى «تيديكلت» (راحة اليد)، وهو تفسير له قرائن موجود بمنطقة في الصحراء الكبرى التي تحمل اسم «تيديكلت»[29].

مما يدفعنا إلى التساؤل، هل خضعت اللسان الأمازيغي للتطور في معاني ألفاظه سواء أثناء احتكاكه بغيره أو بنفسه، أم أنه الاختلاف الطبيعي من منطقة إلى أخرى؟ لذلك نرى أن البحث عن أصله قبل التنوع -إن وجد- هو المدخل الطبيعي لفك رموز هذا الإبهام، دون السقوط في عملية الإفراغ ضمن صياغة واحدة. وهنا نسجل قاعدة ذهبية في أسماء الأماكن مفادها، إن الأسماء وعلى تعدد ذكرها لزم تفسيرها بما يناسب محيطها، لا بمصادرة معانيها المتعددة بحسب المناطق المختلفة وتعميم المعنى الواحد علي المتعدد من ذكرها.

لذلك فعلى قدر أهمية البحث في معاني الاسم ولغته والسعي إلى محاولة ضبطه، إلا أن دور الباحث في ضبط الأعلام الجغرافية يتعدى هذا الاهتمام إلى البحث عن دواعي التسمية وأسبابها، وهذا جانب هام مساعد لفهم معاني وتاريخ اسم المكان. فالاهتمام بأسماء الأماكن في

29- محمد زاهد، الطوبونيميا الأمازيغية من خلال بعض المصادر التاريخية: 14. التشوف: 144. كما أن هناك العديد من الأعلام الجغرافية اختلف الباحثون في تحديد معناها مثل: «تاغزوت» (الأرض الخصبة، المنخفض) باب تاغزوت (باب الخروج للغزو). التشوف: 295.220. «أغمات» (قيل بخلاء، قال التوفيق الهمزة زيادة وهو فعل أمل معناه اصبغوا). التشوف: 84.

البعد اللغوي لمرجعيتها، هو اهتمام بأسماء ناطقة تخبر عن كيفية نطقها الفعلي، ومعناها العملي، وبنائها التركيبي، وأصلها اللغوي.

الطوبونيميا والبعد الجغرافي للمرجعية :

ترتبط الأعلام الجغرافية في تسميتها بعناصر عدة تشكل أساسا ومصدرا ومرجعا لها، ومن بين هذه العناصر المكونة لبنية مرجعيتها البعد الجغرافي، ليس باعتبار المكان المسمى ينتسب للبعد الجغرافي، فهذا جانب حاضر في التحليل منذ البادية، نظرا لكون الأعلام الجغرافية هي في البدء أمكنة ومجالات، لكن المتحدث عنه هنا هو البعد الجغرافي في التسمية وليس في المسمى.

فإذا كان البعد اللغوي في التسمية حاضرا من حيث اللغة المستعملة، فإن البعد الجغرافي في التسمية حاضر من حيث المضمون الجغرافي الذي حازه اسم المكان تصريحا أو كناية عن ظاهرة طبيعية أو مجموع الأشكال والوحدات والألوان التضاريسية والجهات والظروف المناخية، والأحجام والمجاري المائية، والألوان والأنواع النباتية، والمعادن والأسماء الحيوانية [30]، لذلك قلنا إن البعد الجغرافي للمرجعية هو ذلك الرابط لمجموع الصفات المظهرية التي يتحلى بها المكان.

فالبعد الجغرافي لاسم المكان عنصر لازم لضبطه، ولا يمكن التحقق منه أو الضبط التام له إلا بعد المعاينة أو ما يوصل إليها، بحثا عن جانب التطابق بين التفسيرات المقدمة لاسم المكان وبين مظاهر السطح أو الصفات المظهرية التي حازها المكان، فمدينة تطوان تحريف لـ «تيطّاوين»

30- إبراهيم موسى الزقرطي، أسس الأسماء الجغرافية: 37.

التي تعني «العيون»، ذلك أن وجودها على سفح جبل ايشفار، وعلى أسفل وادي مجكسة ما يبرهن أن هذا التفسير له من التطابق ما يرجح، نظرا لكون المدينة ارتبط وجودها بهذه العيون التي كانت تعطي الحياة والاستقرار بالمنطقة، ولشدة التعلق بأحد عوامل الاستقرار سميت بتيطاوين [31]. كما أن هناك مواقع أخرى لها نفس الاسم، في تونس على جبل دمر جنوب شرقي افريقية، وفي إقليم ورزازات قرب أمسمرير بالمغرب الأقصى، وفي إسبانيا قرب مدريد، والبحث في معانيها قد يكون له نفس الدلالة وقد لا يكون [32].

وعند البحث في أسماء الأماكن للغرب الإسلامي يتضح أن البعد الجغرافي بمعناه السابق كان حاضرا وبشكل كبير، حتى أنه ليمثل بحسبنا الدليل القاطع على القيمة التي كان يعطيها سكان الغرب الإسلامي للجغرافيا وعناصرها، وهو ما يمثل بعدا حاضرا في البنية المرجعية لثقافة ساكنة المنطقة.

ومن بين مظاهر حضور هذا البعد الجغرافي في أسماء الأماكن، ما يرتبط بالأشكال التضاريسية، مثل «تادلا» (السهل الخصب) [33]، «تاكنيت» (المنخفض) [34]، «تاوريرت» (التل)، «تامازووت» (بداية العقبة) [35]، «تازاكورت» (الجرف الصغير) [36]، «إيكيسل» (المكان

31- البكري، المسالك والممالك: 106 -108. الإدريسي، نزهة المشتاق: 170. ناصري، الاستقصا: 3/ 96.

32- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية: 13. رشيد الحسين، وشم الذاكرة: 23-40.

33- ابن الزيات، التشوف: 108.

34- م.ن: 108.

35- م.ن: 129.

36- م.ن: 158.

المطل على المجرى المائي) [37]، «أزيلال» (فج بين جبلين)، «تافرنت» (المكان المتميز) [38]، «إيفغل» (المكان المرتفع) [39]...

ومنها ما يتعلق بالصخور، حيث نجد «تاونت» (الصخرة) [40]، «أزرو» (الحجرة أو الصخرة) [41]، «إيكليز» (الصخرة العظيمة) بمراكش [42]، «تاسماطت» (حصى الزلط) [43]، «تامتغاطت» (حجر الأسفين) [44]، «قصر الحجر» أو«دار الحجر» بمراكش قرب ساحة جامع الفناء [45]، «باب الحجر» بمدينة زرهون [46]، «باب الرملة» بإشبيلية [47]، «وادي الحجارة» بشرق الأندلس [48]...

ومنها ما يرتبط بالأودية والمجاري المائية، حيث نجد «وانسيفن» (وادي الأودية) [49]، «وادي درعة» (الوادي العميق) [50]، «وادي إغزر» (وادي الشعبة، الوادي غير الدائم الجريان) [51]، «أكرسيف» (ما بين

37- م.ن: 423 .

38- م.ن: 141.

39- م.ن: 183.

40- م.ن: 368.

41- م.ن: 288. 367.

42- م.ن: 149.

43- م.ن: 164.

44- م.ن: 166.

45- مجهول، الحلل الموشية: 25. 139. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة: 169. 346. ابن عذاري، البيان المغرب: 22/4 .

46- ابن غازي، الروض الهتون: 13.

47- ابن عذاري، البيان المغرب: 74/4.

48- ابن عذاري، البيان المغرب: 54/4. 56. مجهول، الحلل الموشية: 58. البرزلي، جامع مسائل الأحكام: 367/4 .

49- ابن الزيات، التشوف: 133. 135. 144.

50- م.ن: 158.

51- م.ن: 341.

النهرين)، «آسفي» (المصب) [52]، «تيطاون» (العيون) [53]، «تيطن فطر» (رباط العين) [54]، «بحيرة الفصفصة» أي الصفصفة [55]...

ومنها ما يتعلق بالألوان، حيث تذكر المصادر «وادي مليل / أمليل» (الوادي الأبيض) بنواحي تازة[56]، «أحد أيمليل» بنواحي أغمات[57]، «المدينة البيضاء» (فاس الجديد)[58]، «الدار البيضاء» بغرناطة[59]، «الكدية البيضاء» بمكناس [60]، «وادي الأحمر» بالأندلس [61]، «باب الحمراء» بفاس قرب باب الفتوح [62]، «الجبل الأحمر» بتونس [63]، «القصبة الحمراء» بغرناطة [64]، «مدينة الخضراء» واقعة بجهات نهر شلف [65]، «ربع الخضراء» بتونس [66]، «الجزيرة الخضراء» بالأندلس [67]، «باب الكحل» بإشبيلية [68]، «حصن الصفراء» بالأندلس [69]،...

52- م.ن: 41.

53- البكري، المسالك والممالك: 106 -108. الإدريسي، نزهة المشتاق: 170. ابن عذاري، البيان المغرب: 99/4. ناصري، الاستقصا: 3 /96.

54- ابن الزيات، التشوف: 209.

55- م.ن: 245.

56- البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت: 22. ابن الزيات، التشوف: 158.

57- البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت: 31.

58- ابن الأحمر، بيوتات فاس: 9 .49. ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزناتية: 58.

59- مجهول، الحلل الموشية: 162.

60- البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت: 25.

61- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة: 401.

62- ابن الأحمر، بيوتات فاس: 65. وعن اللون الأحمر هناك اليوم عين مائية بالقرب من تازة تسمى بـ«العين الحمراء».

63- البرزلي، جامع مسائل الأحكام: 453/5.

64- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة: 125. 127-133.

65- البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت: 19. 96.

66- البرزلي، جامع مسائل الأحكام: 3/ 396.

67- عن اللون الأخضر هناك ضاية «أكلمام أزكزى» (البحيرة الخضراء)، وهي بحيرة مائية بنواحي خنيفرة.

68- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة 167.

69- م.ن: 412.

ومنها ما يرتبط بأسماء الحيوانات حيث نجد مثلا «شيشاون / إيشيشاون» (صغار الدجاج) [70]، «إيسين / أيسان» (الخيل) [71]، «قرن الثور» بمراكش [72]، «قرن الجدي» بمراكش [73]، «أمشكاد» (القرون) [74] «تانوتن طير» (بئر الطير أو الحمام) [75]، «خندق النمر» بفاس عند باب الفتوح [76]، «عقبة البقر» [77]، «جزيرة السباع» بالأندلس [78]، «صلب الكلب» ربوة على البحر بظاهر وهران [79]...

ومنها ما يقترن بالنباتات والأشجار والثمور مثل «أزمور» (شجرة الزيتون البري) [80]، «الزيتونة» بإفريقية، «زقاق الرمان» بفاس [81]، «وادي الزيتون» بفاس [82] وآخر بالقرب من تلمسان [83] وثالث بسرقسطة [84]، «وادي الرمان» بين سلا والمهدية [85]، «فحص الريحانة» باشبيلية [86]،...

70- ابن الزيات، التشوف: 85.
71- م.ن: 414.
72- م.ن: 272.
73- م.ن: 360.
74- م.ن: 291.
75- م.ن:225.
76- ابن الأحمر، بيوتات فاس:44.
77- ابن القطان، نظم الجمان: 215 (الهامش).
78- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة: 375.
79- ابن عذاري، البيان المغرب:4 /125 .
80- ابن الزيات، التشوف: 144.
81- ابن الأحمر، بيوتات فاس: 49.
82- م.ن: 43.
83- البيذق، أخبار المهدي ابن تومرت:56. ابن القطان، نظم الجمان: 255 (الهامش). ابن عذاري، البيان المغرب: 103.
84- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب: 2 /435 .
85- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة: 360 (الهامش).
86- ابن عذاري، البيان المغرب:4/90 .

ويبدو أن أهم مظاهر وعي الإنسان بمحيطه هو تمييزه بين عناصره وأجزائه من خلال إلحاق أسماء محددة بها كالتي ذكرنا، أسماء أعطت للبيئة والوسط والمجال الذي استقر به الإنسان أو مر به معنى، ولم يكن له من عظيم أثر يبرهن على وجوده بها أفضل من تسميته لها، تسمية قد تأخذ من طوبوغرافية المجال أو أحد عناصره وألوانه ومعالمه وأحداثه...، ما يكشف عن تأثره بها تعظيما أو تصغيرا أو تبجيلا...

لذلك فالبحث في الأعلام الجغرافية للغرب الإسلامي بالبعد الجغرافي لمرجعيتها، إحياء متجدد للمكان ولقيمته في وعي وحركة الإنسان، انطلاقا من كون أسماء الأماكن الجغرافية أسماء تطلق على كل معلم على سطح الأرض يتم تداوله بين الناس إما اتفاقا أو اعتيادا، فهي تعبر عن حيوية المرجعية التي تستمد منها أسماء الأماكن أصولها، لصلتها الوثيقة بأمور هي على قدر كبير من الأهمية، خاصة عند سكان المنطقة الذين تداولوها تعارفا أو إرثا...، حتى غدت تمثل جزءا من هويتهم.

فاسم العلم الجغرافي على قدر بساطته من حيث التداول، إلا أنه يمثل أساس رصيد تراكمت عبره العديد من الأشكال المظهرية، وانشدت إليه العديد من الجماعات، وعرف به العديد من الأعلام، حتى أصبح وعاء يحوي الكثير من المعاني والأحداث والقضايا... التي صعبت إمكانية تغييره بسهولة، وجعلت تغييره مرتبط بتغلب جماعة أو دولة على أخرى، وهذا أمر ظل في مجال الغرب الإسلامي قليل الحضور، بخلاف خطوة تقسيم المكان الشاسع إلى أمكنة ضيقة وإلحاق أسماء أخرى بها إضافة إلى الاسم السابق. فما من مكان إلا وله اسم

قد يكون عاما في البداية دالا على مجال شاسع، ثم يجزأ المكان بعد ذلك ليلحق الاسم السابق بمكان ضيق محدود، على أن تأخذ الأجزاء الأخرى تسمية أخرى خاصة بها، بمعنى أنه إذا كان بالإمكان تجزأت المكان، فإن الاسم السابق للمكان لا يلحق إلا بجزء من هذا المكان، مما ينقل اسم العلم الجغرافي من حالة البساطة إلى التعقيد.

لذلك فالاهتمام بأسماء الأماكن في البعد الجغرافي لمرجعيتها، هو اهتمام بأسماء أماكن ناطقة تفصح عن شكلها الطوبوغرافي، وغطائها النباتي، ونشاطها الفلاحي، ومجراها المائي، ومظهرها الجغرافي...

الطوبونيميا والبعد التاريخي للمرجعية :

والتعرض للأعلام الجغرافية بالبحث والضبط، خطوة تقر بأن الجغرافيا معطى ثابت في التاريخ إلى جانب معطيات أخرى، معطى يستدعي ضرورة تناول أسمائها ودلالاتها، بما هي معالم تكشف عن جانب مهم من تاريخ المكان، وترسم سبل الوصول إلى التعرف على الحلقات المفقودة من تاريخها، مما يبرز جانبا بالغ الأهمية للطوبونيميا، ليس في علاقتها بالمكان فحسب، بل حتى في علاقتها بالإنسان الذي يعيش في المكان.

فإذا كان البعد اللغوي يعتمد المخزون اللغوي الجماعي أو الفردي الموروث أو المتداول أو المنسي لضبط الأعلام الجغرافية، فإن هذا المخزون لا يجليه لنا إلا التاريخ، بما هو ذاكرة حية بنصوصها ووثائقها وأسمائها. وإذا كان المخزون اللغوي مهما في ضبط الأعلام الجغرافية، فإن هذا المخزون مهما علا رصيده لن يكون حاضرا بكل اشتقاقاته إلا

إذا استند على التاريخ لتجلية معانيه، مما يجعل البعد التاريخي حاضرا أثناء ضبط الأعلام الجغرافية، بُعد يمثل المخزون الحي للاسم بما هو الإطار أو السياق التاريخي الذي صيغ فيه، ومجموع المؤثرات التي أسهمت في تثبيته.

ثم إذا كان البعد الجغرافي يعتمد على مكونات الطوبوغرافية للمكان، وما يرتبط بها من أحوال، وما يشكلها من أجزاء، فإن هذه المكونات لا يبسطها عبر الزمان إلا التاريخ باعتباره المدون لحركة الإنسان المتأثرة بطبيعة المجال وعناصره. وإذا كان البعد الجغرافي مهما في ضبط الأعلام الجغرافية، فإن هذا البعد لن يكون جليا بكل تبدلاته وتغيراته إلا إذا استند على النصوص الواصفة له في الحقب المختلفة، كما جلتها المصادر على تنوعها من كتب جغرافية وتاريخية وفقهية...

وعند البحث في أسماء أماكن الغرب الإسلامي، يتضح أن البعد التاريخي بما هو مجموع آثار حركة الإنسان في المكان خلال الزمن الوسيط، قد تراكم في مجموع الأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية والمظاهر الإنسانية، والطقوس الدينية والنتائج الحضارية التي وقعت بالمكان، بل وفي مجموع القبائل والتجمعات البشرية التي استقرت بمكان ما، فأخذ المكان تسميته من اسمها أو بعضا من اسمها أو اسم أحد أفرادها، حتى أنها لم تعد مع الزمان تحيل على الحدث أو القبيلة أو العشيرة أو الفرد، بل صارت تحيل على المكان بشكل تلقائي ومباشر، وهو ما يمثل بعدا حاضرا في البنية المرجعية لثقافة ساكنة منطقة الغرب الإسلامي.

ومن بين مظاهر حضور هذا البعد التاريخي في أسماء الأماكن، ما يرتبط بأسماء القبائل أو الأسر والجماعات مثل «دور بني هاشم» بقرطبة [87]، «منازل الهاشمي» بلبلة [88]، «حومة العرب» بطلبيرة نسبة لبني عوف بن كعب بن سعيد بن زيد مناة الذين أقاموا بها إلى حدود القرن 5 هـ/11م [89]، «درب أبي حاج» بالطالعة الكبرى بفاس نسبة لبيت بني أبي حاج [90]، «درب ابن عتيق» بالطالعة بفاس نسبة لبني عتيق العبدريين [91]، «زقاق الروم» بالقيروان [92]، «درب ابن عزاهم» بفاس أصله ابن عزانة نسبة لبني عزانة [93]، «زقاق مصمودة» بفاس عند عدوة الأندلس [94]، «عقبة المكودي» بفاس زقاق ينسب لبيت بني المكودي [95]، «عقبة ابن صوال» بفاس نسبة لبني صوال [96]، «قلعة الأشراف» ببلنسية التي ينتمي إليها أبو العباس أحمد بن طاهر الأنصاري الخزرجي [97]، «قلعة بني سعيد» التي تعود لبني سعيد الذين ينحدرون من سلالة سعد بن عمار بن ياسر [98]، «مقبرة بني

87- ابن بشكوال، الصلة: 297.183/1 .

88- نسبة لهاشم بن الحسين بن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن طالب. المقري، نفح الطيب: 60/3.

89- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: 208.

90- ابن الأحمر، بيوتات فاس: 44.

91- م.ن: 51.

92- البرزلي، جامع مسائل الأحكام: .2 /33

93- ابن الأحمر، بيوتات فاس: 35.

94- م.ن: 39.

95- ابن القاضي، جذوة الاقتباس: 229/1.

96- ابن الأحمر، بيوتات فاس: 26.

97- ابن الأبار، المعجم: 14 -15.

98- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب: 159/2. 162. المقري، نفح الطيب: 1 /330. 331 -3 /61.

العباس» بشرق قرطبة [99]، «مقبرة قريش» بقرطبة [100]، «أرض خيبر» غربي
أرض بالجهة الشرقية العليا لمدينة زرهون [101]، «ربض الأشراف»
القصبة بتونس الحفصية [102]...

ومنها ما يرجع إلى أسماء الأشخاص مثل «مسجد إسماعيل»
قرب مسجد الزيتونة نسبة لإسماعيل بن عبيد الأنصاري [103]، «قصر
زياد» بساحل إفريقية، وكان يسمى «دار مالك» لكثرة العلماء والعباد
والصالحين من أصحاب مالك الذين اجتمعوا فيه [104]، «سوق
حمزة» قرب تاهرت نسبة لحمزة بن الحسن بن سليمان بن علي بن
أبي طالب [105]، «سوق إبراهيم» بقرطبة وهو يعود لأحمد بن عيسى
بن إبراهيم، «مقبرة عامر» نسبة لعامر بن عمر بن عمرو القرشي
العبدري [106]، «روضة الفقيه مروان» بمراكش [107]، «روضة الفقيه
بن قرقول» بمراكش [108]، «قلعة أيوب» بالأندلس [109]، «جبل طارق»

99- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: 314. ابن خير، فهرست ابن خير: 239. 455.

100- الحميدي، جذوة المقتبس: 66. الضبي، بغية الملتمس: 94. ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة: 68. 81. ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي: 229. القاضي عياض، ترتيب المدارك. 248/4. 107/6. ابن خير، فهرست ابن خير: 133. ابن بشكوال، الصلة: 17/1. 28. 140. 150. 224. 243. 364. 411/2. 474. المقري، نفح الطيب: 13/2. 22.

101- ابن غازي، الروض الهتون: 13.

102- الحسن الوزان، وصف إفريقيا: 70/2. ولا زال أحد المواقع يسمى حاليا بـ«عقبة الشرفاء» بالقيروان قرب طريق القيروان.

103- إسماعيل بن عبيد الأنصاري أحد التابعين العشرة الذي أوفدهم الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية. المالكي، رياض النفوس: 107/1.

104- القاضي عياض، ترتيب المدارك: 4/ 384.

105- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: 39. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية: 143.

106- ابن الأبار، الحلة السيراء: 2/ 345.

107- ابن الزيات، التشوف: 245.

108- م.ن: 245.

109- مجهول، الحلل الموشية: 73.

بالأندلس[110]، «عين عمير» بفاس نسبة لعمير بن مصعب بن خالد وزير إدريس الثاني[111]... ومنها ما يرتبط بالأحداث لتاريخية والوقائع الاجتماعية والمظاهر الإنسانية، مثل «مسجُد الرايات» بالجزيرة الخضراء، نسبة للقبائل الحجازية التي دخلت الأندلس ولكل منها رايته[112]، «برج الشهداء» ويعود إلى من دخلوا الأندلس في حملة طارق بن زياد وموسى بن نصير من الحجازيين[113]، «إيميطر» (مكان الراقبة أو الحدود) بمراكش[114]، «تاكرارت» (محلة الجيش) بمراكش ومكناس[115]، «تاودا» (الرعب والخوف) بمراكش[116]...

ومنها ما يرجع إلى الطقوس والمعتقدات الدينية والنتائج الحضارية، مثل «باب الحجاز» بالجامع الكبير بتلمسان[117]، «يليسكاون أو إيلاإيسكاون» (ذو القرنين)[118]، «ركراكة» أو إيراكراكن» ومفردها أركراك (المتبرك به)[119]، «مسجد تورزكين» (المبروكات) بمراكش[120]، «تانسالمت» (المصلى

110- البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت: 81. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة:

111- ابن الأحمر، بيوتات فاس:13. علي الجزنائي، جنى زهرة الآس:18. ابن القاضي، جذوة الاقتباس:25/1. 28-29.

112- الحميري، صفة جزيرة الأندلس: 37. ومما يذكر أنه كان بالمدينة مسجد يسمى بـ«مسجد الراية».

113- ابن عذاري، البيان المغرب:.2 /14-15.

114- ابن الزيات، التشوف: 113.

115- ابن عذاري، البيان المغرب:99/4 . ابن الزيات، التشوف:255. 397 .

116- ابن الزيات، التشوف: 273.

117- ابن مرزوق، المسند الصحيح:403.

118- لا يسمح الموقع بالتفكير في تسمية ذات أصل طبوغرافي، لذلك يرى أحمد التوفيق أن لها علاقة بمعتقدات قديمة. ابن الزيات، التشوف: 131.

119- ابن الزيات، التشوف: 86.

120- م.ن: 238.

خارج البلد) [121]، «تامزاورت» (مكان يزار) [122]، «حومة مسجد أسلم» بقرطبة [123]، «حومة باب اليهود» بقرطبة [124]، «درب العابد» بمراكش [125]...

لقد أبانت خطوة الاهتمام بالأعلام الجغرافية في البعد التاريخي لمرجعيتها، أنه باستطاعتنا البحث في الذاكرة الثقافية للمجموعة البشرية من خلال أسماء الأماكن، انطلاقا من أن بعض هذه الأسماء استطاعت أن تحافظ على الشخصية الثقافية للمجموعة البشرية [126]. ذلك أنه عند تتبع مجموع أسماء الأماكن التي سميت بها مواقع مجموعة بشرية، يتضح أنها أسماء تعود في جزء منها لثقافة المجموعة البشرية التي قطنت المكان، وهو أمر لا ينبغي أن يحجب عنا كون بعض الأسماء قد تكون في أصلها اللغوي محرفة عن أصل لها يعود إلى مجموعة أخرى، إما أنها مجموعة أقدم منها استقرارا بالمكان، أو أن الاسم انتقل إليها رمزا وذكرى لمكان آخر، أو أن الاسم سمي به المكان منذ القديم.

فإذا كان كل مكان يحمل اسما محددا، فإن هذا المكان نفسه قد يحمل أكثر من اسم في نفس اللحظة، ليس من زاوية تعدد الأسماء للمكان الواحد، وليس من زاوية أن الأسماء الجديدة تنسخ الأسماء

121- م.ن: 138.

122- م.ن: 357. ابن عذاري، البيان: 3/ 370.

123- ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى: 347.

124- م.ن: 379.

125- ابن الزيات، التشوف: 238.

126- محمد أيت بود، الأعلام الجغرافية بالمغرب، تويزا، عدد122، يونيو 2007م: 19.

القديمة، فتظل القديمة حاضرة في الذاكرة والتداول لفترة، بل لأن المكان قد يكون مجاله شاسعا، فيحمل جزء منه اسماً باستقرار جماعة بشرية، فيتحول المجال الشاسع إلى مجالين، والاسم الواحد إلى اسمين، مجال أول يحمل الاسم القديم بعد أن ضيقت مساحته، ومجال ثاني يحمل الاسم الجديد بعد أن تمت تسميته.

وهذا ما يجعل اهتمام الدراسات التاريخية بالأعلام الجغرافية، اهتمام بروافد أخرى للمعلومة، فإذا كان البحث التاريخي يسعى إلى البحث عن المعلومة التاريخية من مصادر متنوعة، فإن الأعلام الجغرافية باستطاعتها أن توفر مادة مصدرية تاريخية جديدة يمكن اعتمادها في البحث، لذلك فالاهتمام بالأعلام الجغرافية هو اهتمام بالوثيقة بمفهومها الشامل، وهذا أحد العناصر الجديدة التي يجب استثمارها.

فوضع أسماء لأماكن وأعلام جغرافية على اختلاف سطحها وحجمها ومساحتها.. هو خطوة لتأريخ مزدوج للمكان، من جهة أولى بما هو مجال يحمل اسما محددا، وتأريخ للاسم الملحق بالمكان من جهة ثانية بما هو معنى دال له مرجعيته، وهنا تتحول عملية التأريخ إلى عملية لتخليد المكان ليس في بعده الطوبوغرافي، بل في نقله للمكان من المجهول إلى المعلوم عند زائريه، وسهولة الإشارة والتعريف به عند قاطنيه، إنها عملية تواصل بين الزمان والمكان في الماضي والحاضر.

لذلك فالاهتمام بالأعلام الجغرافية في البعد التاريخي لمرجعيتها هو اهتمام بأسماء ناطقة قد تخبر بعنصرها البشري، ومظهرها الاجتماعي،

وحراكها الثقافي، وإنجازها الحضاري، ورصيدها التاريخي..، إخبار لن يزيد الاسم إلا وضوحا وضبطا، وهذا مقصد الطوبونيميا.

المحور الرابع: خصائص الطوبونيميا بالغرب الإسلامي

من الواضح أن أسماء الأماكن جزء من اللغة، لها حكم ذاتي، فهي إما أسماء صحيحة لها صفاتها وفق اللغة التي تنتمي إليها (مثلا تادلا وتعني حزمة الزرع أو السهل الخصب الواسع)[127]، أو أسماء مجهولة المعنى اليوم لكن لها مرجعية في السابق، إما باعتبارها جزء من الحياة العامة، أو اللغة المتداولة حينها، أو الثقافة المؤطرة وقتها، لكنها تظل أسماء ذات حمولة خضعت للتطور الجزئي أو الكلي عن لغتها الأصلية[128].

وبما أن الأعلام الجغرافية للغرب الإسلامي تحمل من الحكم ما تحمله كل الأسماء، فإنها تظل محتفظة لنفسها بخصوصيات تتقاسم بعضها أو أغلبها مع غيرها من أسماء الأماكن بصورة عامة، ومن بين الخصائص المميزة لطوبونيميا الغرب الإسلامي نذكر على سبيل التوضيح والإجمال لا الحصر والإكمال:

التطابق: بما أن ضبط الأعلام الجغرافية وأصولها مرتبط بالزمن تداولا، فإنه يجب الاعتماد على تاريخ الاسم لفهم مبناه ومعناه، حيث نجد الباحث في تاريخ الغرب الإسلامي يلجأ أثناء تحرير الاسم إلى اللغة المحلية أولا ثم يقارن بين نتائجها وبين نتائج التحري اعتمادا على اللغة الإغريقية أو اللاتينية، ثم العربية وهكذا..

127- ابن الزيات، التشوف: 108 (الهامش).

128 - Jean Loicq, « La toponymie ou science des noms de lieux Son application au patrimoine celtique de l'Ardenne », p 2.

وقد يلجأ الباحث إلى الاستعانة بالعامل الجغرافي أو التاريخي للبحث عن المعالم المشتركة بين الأسماء الواحدة ذات الصلة، حيث يصبح في تكرارها مع وجود سمات جغرافية أو طبيعية أو بشرية ما يساعد على فهم أصلها عند تحديد بعض المعاني على سبيل الاختيار بين تفسيرات عدة، ليتم الترجيح بعدها، وهو ما يعني وجود حالة من التطابق بين اسم المكان والدافع إلى اختياره.

وإذا كانت جميع أسماء الأماكن لها معنى مرتبط بمنشئها، فإن العوامل المؤثرة في المنشئ متعددة بين الطبيعة والقبيلة والأسرة الحاكمة والحدث...، فليس هناك اسم غير دال، وإن وجدت أسماء غير مفهوم أو غير متداولة الاستعمال اليوم، فلا يعني أنه لم يكن لها معنى، بل وجب البحث عن معناها الحقيقي، وإن لم يعثر لها على تفسير فتركها بترجيح لازم، وفي ذلك يسطر ابن سيناء قانونا فريدا ولفظا سديدا وحزما شديدا بقوله (كل ما يقرع سمعك فذره في بقعة الإمكان، حتى يذودك عنه واضح البرهان)..

كما أن هناك بعض الأسماء المناسبة التي حرمت الحماية بعد أن كانت ذات صلة رئيسة بالمنشأ، مما منحها معنى ثانويا أو سلبيا وهذه التشويهات التي لحقتها، لم تكن تشويهات راجعة للاسم، بل راجعة لتبدل معنى الاسم بحكم عوامل عديدة مرتبط بحالة التبدل والتغير والتطور الذي عرفته المجتمعات، لكن تظل الوثائق والمصادر على اختلاف أنواعها المرجع الوحيد القادر على إعطاء الاسم معنا الحقيقي المرتبط باللغة التي صيغ بها أول الأمر كما كان قبل التغير.

- التعدد: قد نجد للمكان الواحد أكثر من اسم، لكن اسما واحدا على الغالب هو من يحظى بالتداول، مما يحتم على الباحث ضرورة البحث عن باقي الأسماء الأخرى كمنهج سليم دون إقصاء لاسم، وترتيبها بالأقدم اسما والذي يليه والذي يليه، وهذا التعدد في الأسماء للمكان الواحد هو ما يدفعنا للقول بأن المكان قد استقرت به أقوام مختلفة بشكل مستمر أو منقطع، ولأسباب سياسية أو قبلية أو نفسية أو دينية غَيَّر الخلف اسم المكان عما اختاره السلف من قبل. اختيار ليس من اللازم أن يكون مطاردة للقديم، ولكن قد يكون بدافع ايجابي، أو لتغليب اسم ظاهرة جديدة ظهرت خلال فترة من الفترات، ظاهرة تستحق التخليد، أو تم تداولها حتى عرف المكان بها، أكثر من سابقها. أو قد يتم اختيار اسم جديد للمكان هو نفس المعنى للاسم القديم، أو قد يبقى اسم المكان هو نفسه، لكن المعنى الذي لحقه تغير من أسوء إلى أحسن أو العكس.

إن محاولة ضبط طوبونيميا الغرب الإسلامي لا يلزمنا بأن نمنح لكل الأعلام الجغرافية معنى انطلاقا من أصل لغوي واحد، لأن ما يميز أسماء الغرب الإسلامي هو كون أسماء أماكنها تتعدد أنساقها اللغوية التي كانت أصلا لها بتعدد اللغات التي مرت بالمنطقة، مما يعني أنه وجب استحضار كل اللغات أثناء البحث، كما أنه لا يلزم أن نثير معاني بعض الأعلام الجغرافية لنلحقها فقط بتاريخ بعض الأسر الحاكمة أو بعض الشخصيات الموقرة، بل لابد من وضع كل الاحتمالات لمعرفة سبب أو سياق التسمية.

- الإيضاح والإبهام: وإذا كانت الطوبونيميا تعتبر عاملا مساعدا للبحث التاريخي، وأساسا متينا لعلم الآثار، فإنها أداة موضحة للغة

الأكثر تداولا أولا، والوسيلة المعبرة عن طبيعة التفكير ثانيا، والصورة الناطقة عن اهتمامات المرحلة ثالثا، لذلك فليس من السهل تحديد معاني أسماء الأماكن، نظرا لأن الاسم يعتبر وثيقة تاريخية، يكشف عن ثروة من البيانات المفيدة للباحثين، التي يمكن اعتمادها ولو على سبيل الاستئناس، للتعريف بالمكان وحركة الإنسان على هذا المكان خلال أزمنة مختلفة، استئناس قد يجد سنده الافتراضي في المؤشرات الطبوغرافية التي تتوفر عليها المنطقة، أو في الوقائع التاريخية التي عاشها المكان...

كما يمكن أثناء ضبط أسماء الأماكن اعتماد الرواية اللغوية للغات المحلية لإيضاح أهمية فحوى الاسم، مما قد يمنحه صفة التعقيد لدى البعض، لكنه يبقى منحى ضروريا لتحقيق الموضوعية التي قد تتعرض للتشويه عند استحضار بعض الحساسيات[129]، وهذا يعني أن النتائج التاريخية التي لا تزال غير مؤكدة، قد تؤدي إلى صراع تأكيد الهويات بين ما كانت عليه وبين ما ينبغي أن تكون عليه عند البعض، وهذا دليل على أهمية وحساسية الطوبونيميا في تاريخ الغرب الإسلامي.

فإذا كانت بعض الدراسات الأجنبية قد سعت إلى تأكيد العمق اللاتيني أو الإغريقي لبعض أسماء أماكن الغرب الإسلامي، فإن بعض الدراسات الوطنية قد سعت من باب ردة الفعل إلى تأكيد العمق المحلي لأسماء بعض الأماكن، وبين هذا وذاك يقف الباحث والمؤرخ ليحتكم إلى النصوص، لا ليوظف النصوص بانتقائية لدراسة وضبط الأعلام الجغرافية ويمنحها دلالة مرجعية محددة.

129- Jean Loicq, « La toponymie ou science des noms de lieux..., p. 3-4.

على أن طوبونيميا الغرب الإسلامي صعبة التلفظ إلا إذا تم شكلها أي رسمها بالحركات، إذ يتعذر نطقها نطقا صحيحا دون ذلك، وإلا غالبا ما تلفظ خاطئة إلا في حالات ناذرة، والسبب هو طبيعة اللغة التي صيغت بها.

- التقعيد: ونحن نعتمد اللغة أو الجغرافية أو التاريخ لضبط أسماء المواقع أو الأماكن، يلزم أن ننبه إلى أهمية قواعد اللغة التاريخية، وهي قواعد لغوية مرتبط بمرحلة تاريخية محددة، يغلب عليها جانب صيغ التداول للألفاظ أكثر من الصيغ اللغوية ذات الاشتقاق السليم، بمعنى أن هناك بعض الأسماء التي اعتمدت ليس لأن لها صيغ محددة، بل لأنها من الصيغ المتفق عليها أو المتعارف عليها بين الناس، فتأخذ مكانتها من حجم وأهمية تداولها لاغير.

واهتمام عالم الآثار بالطوبونيميا هو اهتمام بأداة جذب لأكبر عدد من الأسماء المساعدة على كشف العديد من آثار حركة الإنسان في المكان والزمان. واهتمام المؤرخ بالطوبونيميا هو اهتمام بوسيلة لفهم النصوص، خاصة تلك التي ضمت العديد من أسماء الأماكن كالمعاهدات والاتفاقيات والعقود والرسائل الديوانية وغيرها، وهي نصوص لها قيمتها التاريخية، قيمة لا تكتمل إلا بالبحث عن القيمة التاريخية لأسماء الأماكن الواردة فيها.

لذلك نقول، إن التاريخ والآثار لا تكتمل مساحة عملهما إلا بضبط الأعلام الجغرافية، لكونها دليل إضافي يضاف إلى باقي الأدلة الواردة على حدث أو عهد أو عصر، دليل يستند على نصوص ووثائق

لا على ترجيحات وتخمينات، مما يدفعنا للقول بأن التاريخ والطوبونيميا مجالات بحث يعزز بعضهما الآخر كما يعزز التاريخ علم الآثار وهكذا. حيث تعزز الطوبونيميا جهد المؤرخ وتسهم معه في كشف الغموض الواقع في بعض الجوانب من التاريخ، مما يبرهن عن حالة التكامل الواقعة بين مختلف التخصصات.

- التواصل: تأتي أسماء المواقع الجغرافية أو الأماكن في كثير من الأحيان بمنطقة الغرب الإسلامي لتدل على وجود تواصل طوبونيني عبر الزمان في المكان، بل لتدل على حالة التواصل الفكري والثقافي بين أطراف المنطقة، تواصل على خلفيته كان الالتقاء في الاسم الواحد لمواقع عدة بالمنطقة، تواصل يدل على أن عددا كبيرا من الأسماء المعربة خلال العصر الوسيط مشتقة من أصول قديمة، وفي تعداد وجودها مع اختلاف بسيط في التعريب ما يدل على وحدة المصدر والأصل، بل وحدة التاريخ والحضارة[130].

ومن الأسماء المشتركة الموجودة بمنطقة الغرب الإسلامي ذات الارتباط بانتمائها إلى القبيلة، نذكر قبيلة مكناسة البترية، وهي قبيلة كان مجالها خلال القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي على وادي ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول[131]، ثم زاد امتداد القبيلة وانتشارها، فذكرها اليعقوبي بناحية تلمسان، وبعد أقل من قرنين، كانت حسب البكري

130- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية: 10-11.

131- ابن خلدون، العبر : 265/4.

من القبائل المجاورة لوجدة وفاس[132]. وتذكر المصادر أن بطنا من بطونها سكن جبل الونشريس[133]، فيما أسس آخر مدينة تاكرارت أثناء الحكم الصنهاجي، فأخذت المدينة اسم القبيلة وتسمت بمكناس أو مكناسة الزيتون حسب صاحب الاستبصار[134]، وإليها يرجع حصن مكناسة بشرق الأندلس[135]، كل هذا يدل على أن الاسم انتشر في أكثر من موقع، وهو دليل على التواصل الحاصل بين مناطق الغرب الإسلامي، حيث انتقل من اسم القبيلة إلى طوبونيميا المدينة.

- الاشتقاق : الاشتقاق في أسماء المواقع الجغرافية يتضح من خلال اشتقاق اسم المكان من اسم القبيلة أو اسم العلم أو غيرهما، وهذا ليس أمرا طارئا في أسماء المواقع، بل هو أمر عام وواسع النطاق. فالبحث في اسم محدد لمكان معين يحيلنا بداية إلى تعدد الاسم، تعدد قد يكون سببه تنوع مواطن استقرار بعض عناصر القبيلة بفعل الهجرة والتنقل الطوعي أو الاضطراري. فقبيلة مطماطة مثلا انتشرت ببلاد الغرب الإسلامي وتسمى بها أكثر من موقع، ذلك بأن عناصر القبيلة مفرقون كما ذكر ابن خلدون في مواطن عدة، (فمنهم من بنواحي فاس من قبلتها في جبل هنالك معروف بهم ما بين فاس وصفروى، ومنهم بجهات قابس والبلد المختط على العين الحامية من جهة غربها، منسوب إليهم، إلى هذا العهد يقال حمة مطماطة)[136]، وتحدث اليعقوبي عن بني مطماطة

132- البكري، المسالك والممالك: طبعة دي سلان الجزائر 1857م: 88.

133- ونشريس بلدة من أعمال بجاية بين باجة وقسنطينة الغرب، وهي من أكثر الكتل الجبلية ارتفاعا في غرب الجزائر. الحميري، الروض المعطار: 600.

134- مجهول، الاستبصار: 187.

135- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 95-96.

136- ابن خلدون، العبر: 4/251-252.

بالمغرب الأوسط، غرب تاهرت بمدينة ايزرج وشمال غرب تلمسان، فيما ذكر البكري بالمغرب الأقصى مطمامة أمسكّور (بلد كبير على نهر ملوية هو منه في قبليه وهو بلد كثير الزرع، سقي كله من نهر ملوية..وبها جامع وسوق) [137]، مما يعني أن المقصود من ذلك هو مطماطة بلدة بين فاس وتازا، إضافة إلى بلدة مطماطة بالجنوب التونسي [138].

والواضح أن أمثلة أسماء الأماكن المشتقة من أسماء القبائل عديدة، ولا يمكن أن نعددها جميعا، فمليلة التي هي بطن من هوارة أعطت اسمها لمدينة بالمغرب الأقصى، وأخرى بألزاب باسم مليلي، أما قبيلة يفرن الزناتية، فقد (كان منهم بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب بنواحي تلمسان إلى جبل راشد المعروف بهم)، كما انتشروا ببلاد المغرب الأقصى وكونوا دولا بها، ولهم قصور في الأطلس الصغير، كما يوجد اسم يفرن بجبل نفوسة غرب مدينة طرابلس [139].

- الاشتراك: القول بخاصية الاشتراك يرجع إلى أن العديد من أسماء المواقع لا تعود في أصلها إلى اسم القبيلة الواحدة، بل ترجع إلى وحدة الجذور اللغوية واللسان بأقطار الغرب الإسلامي، مما يفسر حالة التطابق للعديد من المواقع الجغرافية في هذا المجال، فهذا البكري والإدريسي يذكران تطاوين، وهي مدينة تقع بجبل دمر جنوب شرقي افريقية، ذكرت لأول مرة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، في حين يذكر الإدريسي مدينة ثانية باسم تطاون أو تيطاوان حسب

137- كتاب البلدان: 356. البكري، المسالك والممالك: 145.

138- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية: 11.

139- البكري، المسالك والممالك: 56. ابن خلدون، العبر: 7/22-24.

البكري، وتقع بدورها على سفح جبل ايشفار، وعلى أسفل وادي مجكسة، ولعل هذا ما يفسر أن الكلمة تعني بالأمازيغية العيون [140]. كما أن كلمة سوس تطلق على أكثر من موقع ببلاد الغرب الإسلامي، فإلى جانب بلاد السوس بالمغرب الأقصى، توجد مدينة سوسة بإفريقية، وقد تحدثت عنها أغلب المصادر، وبلدة أخرى بالقرب من برقة يطلق عليها سوسة [141]...، مما يعني أن هذه الأمثلة لا تعدو أن تكون غيظ من فيض، لكنها تأتي لتدل على مدى الاشتراك في اسم الأماكن بين العديد من المواقع ببلاد الغرب الإسلامي، مما يحتم ضرورة معالجة القضية المعجمية لأسماء المواقع [142].

إن هذه الخصائص المذكور عبر أمثلة مختلفة لا تعني أن هناك فصل بينها، بل إن المثال الواحد قد يحتوي على كل الخصائص المذكورة رغم تعددها، فيكون اسما مشتقا وأصيلا ومتطابقا ومحققا للتواصل، وجميع الأمثلة الواردة في المحور السابق والواردة في المصادر إنما تأتي شاهدة على مدى التجانس الطوبونيمي ببلاد الغرب الإسلامي، فهي تقدم أمثلة للمعالجة المعجمية المطلوبة، على قاعدة تعدد اللغات واللهجات التي عرفتها المنطقة. كما تقدم الدليل على تكامل العلوم والتخصصات فيما بينها.

يتضح من خلال كل ما سبق أنه إذا كان بعض الباحثين يعتبرون الطوبونيميا من الاهتمامات المساعدة للدراسات التاريخية، بل ورافدا

140- البكري، المسالك والممالك: 108- 106 . الإدريسي، نزهة المشتاق: 170.

141- البكري، المسالك والممالك: 85.

142- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية: 13.

للبحث العلمي[143]، فإنه لا ينبغي أن ننسى كذلك بأن التاريخ من العلوم المساعدة للطوبونيميا، وأن تجاوزه في ضبط دلالة أعلام الأماكن هو انحراف عن القصد وتشويه للأصل وتزييف للتاريخ، لذلك فإن مجموع الأعلام الجغرافية رغم تعددها وتنوعها هي بنظرنا وثيقة هامة وجب اعتمادها، لكن بضبط دلالاتها لا بتشويه معانيها.

على أن الدعوة إلى إعادة تركيب عناصر الهوية الحضارية والثقافية لمختلف المجالات الجغرافية لبلاد الغرب الإسلامي، وتفاعلاتها التاريخية وعلاقاتها المتعددة في بلد من البلدان[144]، على قاعدة البحث في ضبط الأعلام الجغرافية بخلفية إثبات عنصر لغوي واحد، أو عنصر بشري واحد، أو عنصر مذهبي واحد، أو صفحات مشرقة من التاريخ فقط، هو برأينا دعوة إلى تشويه الهوية الحضارية له، وهو دعوة إلى تزييف التاريخ، أو تنظيفه وتصحيحه، حتى يستوعب عنصرا واحدا من هذه الهوية التي هي عبر الزمان تراكم وتمازج للعديد من العناصر البشرية واللغوية والدينية التي أفرزت تاريخا على المجال تفاعلا معه.

لذلك نقول، إن الدعوة للبحث عن الذات، أو التأريخ للذات، لا تكمن في اعتبار الطوبونيميا العنصر الوحيد في استعادة الذاكرة الجماعية للشعوب، وإعادة تركيب مكونات هويتها الثقافية[145]، لأن الظاهرة الاجتماعية بطبعها ظاهرة متحركة غير ثابتة، لن تنتظر من الباحث في الهويات إعادة تركيبها بما يناسب توجهه وفكره وأهدافه،

143- محمد أيت بود، الأعلام الجغرافية بالمغرب، تويزا، عدد122، يونيو 2007م: 19.

144- محمد زاهد، الطوبونيميا الأمازيغية من خلال بعض المصادر التاريخية: 14.

145- محمد زاهد، الطوبونيميا الأمازيغية من خلال بعض المصادر التاريخية: 14.

فالتاريخ لا يصنعه الأبطال بل الشعوب، والهوية لا يشكلها الجنس الواحد بل مجموع الأجناس واللغات والديانات الحاضرة في المكان فصلا أو وصلا، بقصد أو بغير قصد. لذلك فالبحث عن الذات يستلزم النظر إلى التاريخ بما كان لا بما ينبغي أن يكون، وبما هو تراكم وتنوع وتعدد لا بما هو قراءة أحادية أو إقصائية، وبما هو جمع من الجهود والعوامل والمؤثرات لا بما هو جهد وعامل ومؤثر واحد.

الفصل الثاني

الطوبونيميا بالغرب الإسلامي
عناصر في المنهج

الطوبونيميا بالغرب الإسلامي
تساؤلات منهجية

د. عبد المالك ناصري

منذ أن أصبح الإنسان واعيا بمحيطه، وهو يحاول أن يعطي معنى للبيئة التي يعيش فيها، إما لأنه يريد أن يضع مرجعية معينة لعناصر الطبيعة، أو لتخليد حدث هام، أو تكريم شخص مشهور..، لذا فوضع أسماء لأماكن ولمكونات الوسط الجغرافي هو عملية إحياء وتخليد للعنصر المسمى. فالطوبونيميا علم يقيم ويحلل ويؤصل لتطور الأسماء، التي تم اختيارها للدلالة على أعلام الأماكن. وكلمة طوبونيميا «toponymi» تأخذ معناها من كلمتين: الأولى «طوبو»«topos» ، التي تعني المكان، و«أنوما» «onuma»، التي تعني اسم. والطوبونيميا أصناف: فهناك مثلا «الأرونوميا» ،« oronymie » وتهتم بدراسة أسماء الجبال، و»الهيدرونوميا» «hydronymie»، وتهتم بدراسة المجاري والمسطحات المائية، والميكروطوبونيميا «microtoponymie»، وتهتم بدراسة أسماء الأماكن، و«الأودونيميا» «odonymie»، وتهتم بدراسة أسماء الطرق والأزقة والشوارع [146].

---

146 - Michel Marier et Gineite Bolduc, Le patrimoine tomponymique de la ville de de Longueuil, Juillet 1991 (Septembre 1999), p 7.

إن أهمية الطوبونيميا غالبا ما تكون مجهولة أو مغفولا عنها، لكن رغم ذلك، فلا يمكن أن نتغاضى عن حقيقة كون الطوبونيميا يمكنها رسم ملامح ثقافة مجتمع من المجتمعات [147]، من خلال ما تعكسه من مفاهيم، تكون لها غالبا، امتدادات تاريخية عميقة [148]، حسب خريطة مجالية لها ارتباط وثيق بظواهر مختلفة، فهناك أسماء أعلام بشرية، كل له حمولته الثقافية، وأسماء أعلام مكانية، تنصب على مفاهيم ودلالات لغوية ذات علاقة بما يمكن تسميته بـ«المواقعية»، أو أسماء الأعلام الجغرافية، وبالتالي فالطوبونيميا تشكل تخصصا قائما بذاته له مناهجه وتقنياته، فهي ليست حكرا على علم من العلوم، ولكنها تهم كل التخصصات، رغم كونها حقلا معرفيا لازال في بداية تبلوره ويحتاج إلى تأصيل وتقعيد.

إن البحث الطوبونيمي يقتضي الإلمام ببعض العلوم المساعدة، وخاصة علوم اللغة أو ما يعرف بـ«الفيلولوجيا» «philologie» ، وأيضا أنظمة نقل الحروف «النقحرة» «transcription» [149] من لغة لأخرى،

147- Boroumi Aicha, La tomoponymie : outil culturel pour un développement durable en Méditerranée et dans les zones fragilisées, le domaine libyco-berbère, Collecte CDIM 2004, Centre National de Documentation du Maroc, p 265.

148- الزقرطي إبراهيم موسى، أسس الأسماء الجغرافية ، المركز الجغرافي الملكي الأردني، عمان 1997م : 7 وما بعدها.

149- نحتت كلمة «نقحرة» من «نقل حرف»، ويقصد بها أداء رسم صوت حرف لغة ما بصوت حرف لغة أخرى، كأداء صوت الحرف العربي بصوت الحرف اللاتيني، أو العكس. ولا يوجد مشكل بالنسبة للحروف التي لها مثيل في اللغتين أو اللغات، وإنما تبرز المشكلة في الحروف التي ليس لها مقابل في اللغات، مما يؤدي إلى تحريف، بل وقد يصل الأمر إلى اختلاف في لفظ وكتابة الاسم. ولينطق الاسم صحيحا كما يلفظ في لغته الأم يتم إدخال علامات صناعية، أو ما يمكن تسميته بالإشارات غير الأبجدية على حروف اللغات التي ليس بها مثل تلك الحروف، مع أن هذه العلامات أو الإشارات تبقى أقل من أن تمثل الأصوات الحقيقية، وقد تكون هذه الإشارات والعلامات المستخدمة نقطا أو حركات أو إشارات أو حروفا صغيرة توضع فوق أو تحت الحروف.

وقواعد تغيير الأسماء والتعامل معها مكتبيا وميدانيا، وطرق جمع الأسماء والتعامل معها مكتبيا وميدانيا، وقواعد تغيير
وطرق جمع الأسماء والتعامل معها مكتبيا وميدانيا، وقواعد تغيير البلدان

وطرق جمع الأسماء والتعامل معها مكتبيا وميدانيا، وقواعد تغيير الأسماء الجغرافية، وكيفية استثمار معطيات فهارس ومعاجم البلدان وكتب الجغرافيا التاريخية. وهذا لا يعني أن البحث الطوبونيمي ما هو فقط إلا عملية حصر للوائح أعلام جغرافية، من خلال جمع المعطيات وتصنيفها، وضبط أصولها ومرجعياتها وتحولاتها، ومعرفة طرق وأساليب كتابتها، ومحاولة التغلب على مشاكل المناقلة الصوتية، بل هو علم يروم التعمق في معرفة مواضيع وإشكاليات وأهداف الممارسة العلمية المتخصصة، من خلال الاستغلال النظري للنتائج المحصل عليها، والتي تشكل جزءا من التراث الثقافي للجماعات البشرية، سواء تعلق الأمر بماضيها أو بحاضرها.

إن اختيار الأسماء لا يكون دائما باتفاق عام بين المجموعات البشرية، حسب ما يمكن أن نفترض، بل أساس هذا الاختيار يكون في الكثير من الأحيان لا إرادي يخفي قصدا غير معلن، ويمكن أيضا أن يكون انتقاء لأسماء انطلاقا من حافز شخصي فردي، أو تبعا لمنفعة مشتركة للجماعة. فوضع اسم كفعل رمزي هو بحث في الدلالات الوجدانية للذاكرة الجماعية، وهو تعبير عن مظاهر ثقافة البلد، وهذا من شأنه الإسهام في تطوير الإحساس بالانتماء للجماعة.

ويمكن التأكيد، أن القيمة العلمية للبحث الطوبونيمي، تكمن في تعدد مجالات توظيف نتائجه، وفي ثراء التساؤلات المطروحة حول القضايا المعالجة، انطلاقا من تراكم المعلومات المحصل عليها، فمن خلال هذا البحث يمكن التعرف على أشكال الاستيطان البشري، وعلى مختلف أشكال التعمير، ويمكن أيضا، انطلاقا من هذه النتائج، التأريخ

للتحولات البيئية ولطبيعة العلاقة بين الإنسان والمجال، وبالتالي تسهل المقاربة العلمية للتحولات المجتمعية ارتباطا بالبيئة الطبيعية المحيطة.

غير أن ما يلفت الانتباه، في محاولة التعرف والتعريف بهذا العلم الفتي، هو ارتباطه الوثيق بالتاريخ، على اعتبار أنه يبحث في أصول الأسماء، ويمكن أن نوضح هذه العلاقة انطلاقا مما يمكن أن تقدمه الطوبونيميا، كعلم وليس كهواية، من خدمة للمؤرخ في تفسير بعض الظواهر، سواء البشرية أو الطبيعية، فالتاريخ يبحث في مجموع أحوال الكون، في زمن غابر، بغرض الحصول على معلومات ليست بالضرورة وافية عن تلك الأحوال[150]، وبهذا الإقرار يتبين أن التاريخ لا ينفصل عن الإنسان، باعتباره محور التاريخ، وهذا يجعلنا نتبين بسهولة العلاقة بين التاريخ والطوبونيميا كسجل لأسماء، الغرض منه تخليد ذكر سواء بالإيجاب أو السلب.

ومن المهم أن نلاحظ، عبر مراحل التاريخ البشري، كم كانت إرادة الأجداد قوية في ترك بصماتهم، من خلال تسمية أماكن مختلفة من المعمور، بشكل احتفالي أو إجلالي أو تكريمي، وأحيانا قدحي إذلالي. بهذا فالطوبونيميا هي وسيط روحي بامتياز بين الماضي والحاضر، وقد يمتد التأثير، في كثير من الأحيان، إلى المستقبل، لذلك فمعرفة طوبونيميا الغرب الإسلامي هي اكتشاف لتطور نوعي لا إرادي لمراحل تاريخ هذه البلاد عبر الزمن.

15-ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1421هـ/ 2001م : 6 - العروي عبد الله، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء - بيروت 1992م:1 / 33.

إلا أنه خلال تعاملنا مع دلالات ومعاني الأسماء لغويا، لا يمكننا أن ننكر المشاكل والصعاب التي يطرحها تاريخ اسم من الأسماء، فمن الضروري، قبل مباشرة طرح التفسيرات الممكنة، التعرف على مدى قدم المعلمة، أو الظاهرة، التي يشير إليها الاسم. ومن الإجراءات المنهجية التي يمكن اللجوء إليها، التحليل التاريخي المبني على الاستشارة الموسعة للمصادر المتاحة، للتعرف على المجال الجغرافي المعني، ثم التحليل اللغوي المرتكز على تتبع المسار التطوري للجماعة البشرية المقيمة به منذ أقدم المراحل التاريخية. إذ إن بعض الأسماء الأمازيغية المتداولة لم يعد لها مدلول في اللهجة المحلية، ولم يضبط رسم كتابتها لأن هذه اللهجة لم تكتب أصلا، يضاف إلى ذلك مشكل ضبط المواقع الجغرافية، بالدقة العلمية المطلوبة، لأن معنى بعض الأسماء يدل على عنصر بيئي لم يعد له وجود أو تغير عن أصله.

المحور الثاني: الطوبونيميا بالغرب الإسلامي ملاحظات منهجية

إن خصائص كل منطقة من مناطق هذا المجال الجغرافي، بحدوده التاريخية، طَبعت بشكل جلي طوبونيميته. كما أن الحضارات التي كان لها اتصال بالمنطقة، ساهمت في تشكيل ملامح هذه الطوبونيميا، وعليه فالإطار الطوبونيمي يمثل بنية متكاملة لمختلف التقلبات السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، وأيضا هو انعكاس لمؤثرات الحضارات المتعاقبة على بلاد الغرب الإسلامي.

فهل باستطاعتنا أن نتحدث عن طوبونيميا ترتبط بما يعرف بالغرب الإسلامي، أو المغرب الإسلامي ؟ والمقصود بالتساؤل هنا مدى مقاومة أسماء أعلام الأماكن للزمن وللتغيير. هناك صعوبة كبيرة حقيقة في الإمساك مباشرة بالأولويات، فمنذ البداية تواجهنا تسمية المغرب، ومن السهل أن نحدد هذا الحيز الجغرافي، بما يتماشى والمنهج المتبنى في هذه المقاربة، بالمنطقة الممتدة من برقة [151] إلى حدود نهر السنغال، وإذا أضيف إليها الأندلس، أصبح الاسم مركبا، وهو المغرب الإسلامي أو الغرب الإسلامي، لكن ذلك تواجهه صعوبات ترتبط بالتسمية، فهل المقصود المغرب كوحدة ؟ لكن أي مجال نعني ؟ إذا كان شمال إفريقيا، نكون غير دقيقين لأننا أغفلنا مصر، أما إذا حاولنا التدقيق، وقلنا غرب شمال إفريقيا، فإن هذا الوصف يدل على حالة سياسية معاصرة، وإذا حاولنا أن نحيل التسمية على الجماعات البشرية التي استوطنت المنطقة، وقلنا أرض البربر، فسنجد أنفسنا نردد تسمية كانت رائجة في أوروبا في بداية العصر الحديث، فتم التخلي عنها لخلفياتها السياسية، وربما العرقية، أما لفظة المغرب، رغم معناها المطاطي [152]، فإن لها دلالتها في اللغات الأجنبية، ويمكنها أن تشكل أدق اسم يعبر عن

151-هي مدينة المرج الحالية، الواقعة على الطريق الداخلي الذي يربط بنغازي بطلميثة، على بعد 44 كلم إلى الشرق من الأولى و 26 كلم إلى الجنوب الغربي من الثانية، أنشأها اليونان في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الطبعة الثانية، الرباط 1420 هـ / 1999 م: 21 (هامش 17).

152-بعض المصادر الجغرافية القديمة فصلت في تقسيمات هذا المجال الجغرافي، ينظر على سبيل المثال، أبو الفدى عماد الدين إسماعيل بن محمد، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت): 122 وما بعدها.

هذا الحيز المكاني، لكنها في اللغة العربية لا تفيد حتى ولو كانت مقترنة بكلمة عربي أو إسلامي [153].

وإذا رجعنا إلى الإستوغرافيا المغربية، أي إلى تاريخ التآليف التي ذكرت اسم المغرب، للدلالة على واقع جغرافي مفترض، فإنه يصعب علينا الوصول إلى نتائج مرضية، لأن بداية الحركة التاريخية بالمنطقة يصعب تحديدها، إضافة إلى تعذر ضبط تطور هذه الإستوغرافيا لصالح تفسير دلالة الاسم كفكرة أكثر منه تأريخا للمجال.

هناك العديد من المصطلحات الجغرافية، التي وردت في ثنايا النصوص التاريخية، اتخذت دلالات قطرية وسياسية واجتماعية، واكبت التطور التاريخي الذي شهده المغرب الإسلامي، اعتبارا لكون مفهومه مستمد من موقعه في مقابلة بلاد المشرق، وهذا يحيلنا على حقيقة لا مفر منها، وهي أن المعنى الدلالي للمصطلح لا يتجاوز المعنى اللغوي العام [154]. وهكذا تم تداول هذا المصطلح في المصادر التاريخية المتقدمة، بشكل غير دقيق ومضبوط إلى حدود القرن الثالث الهجري / 9 م. بعد ذلك ارتبط مصطلح المغرب بمفاهيم جغرافية وسياسية، واستمر الأمر إلى فترات متأخرة، حيث ساهم التدخل الأجنبي في إذكاء الجهوية، والقطرية، إلى حد بعيد [155].

153- العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء - بيروت 2009م : 32.

154- محمد شفيق، حفريات في اللغة قد تفيد المؤرخ، تيفاوت، العدد 7 يناير/فبراير 1996 : 49 - 57...

155-العلوي القاسمي هاشم، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية 1415 هـ/ 1995م: 1 / 55.

لقد عرف المغرب الإسلامي مؤثرات حضارية، داخلية وخارجية، جد متباينة، لذا فطوبونيميا المنطقة يظهر فيها بوضوح المؤثر الخارجي، المعدل أحيانا للمعطى المحلي، حيث نلاحظ أن هناك تدرج مستمر في مفاهيم ودلالات أسماء الأماكن، تبعا لسيطرة شكل من أشكال الحضارات المتعاقبة، ورغم ما حدث من تطور تاريخي في العلاقات الاجتماعية، أدى إلى نوع من التداخل الثقافي، وبالتالي إلى إنتاج نسق مفهومي طوبونيمي - لا إرادي طبعا - فإن هناك تأثير واضح لهذا التداخل الاجتماعي، يترجم الارتباط الوثيق بين الإنسان والأرض، من خلال التسميات التي أطلقت على مختلف مكونات المجال.

هناك تساؤلات، ترقى أحيانا لمستوى الإشكاليات، تفرض نفسها كلما أثير الحديث حول طوبونيميا بلاد الغرب الإسلامي، خاصة وأن موقع المنطقة البيني، كنقطة لقاء بين حضارات مختلفة، وكممر بين مجالات قارية متباينة، يجعل ضبط الخريطة الطوبونيمية للمنطقة تاريخيا من أعوص المهام، فهل كانت هناك أسماء للأماكن قبل قدوم أول وافد على المنطقة منذ غابر العصور؟ وما هي الروافد اللغوية التي استقت منها هذه الأسماء معانيها ؟ وهل ارتبطت هذه الروافد بحضارات معينة، مؤثرة أو غير مؤثرة ؟ هل دائما التفسير اللغوي للأسماء يمكّن من الوصول إلى ما تخفيه هذه الأسماء من دلالات تاريخية ؟ وهل الصيغة الحالية التي نتداول بها هذه الأسماء سلمت من التحريف واختلاف النطق والرسم؟ إنها تساؤلات يمكن إيراد بعض الأمثلة منها : فمدينة

«وجدة»، عرفت بـ«وجدات» [156]. ومدينة «تاوريرت»، عرفت ب «صاء» [157]. ومدينة «كرسيف»، وعرفت بـ«أكرسيف» [158]. ومدينة «الخميسات»، عرفت ب«خميس قنزرة» [159]. ومدينة «القصر الكبير»، عرفت بـ«قصر عبد الكريم» [160]. و مدينة «شيشاوة» عرفت بـ«مدينة أفيفن». ويحتمل أن تكون «ايمي ن تانوت»، هي ما كان يعرف بـ«تامارورت»، أو أنها قرية من قراها [161]. و«سيدي بنور» الحالية، عرفت بـ«يليسكاون» [162]. وهناك أمثلة كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

إن هذه التغيرات في دلالات أسماء المواقع عبر الزمن، تجعلنا لا نأمن السقوط في الخطأ، بل إن هناك العديد من الأسماء، وردت في المصادر المتقدمة، لكن أغلبها اختفى اليوم من الخريطة الجغرافية للمنطقة، على غرار «تاقايط»، وهي مدينة صغيرة كانت بالقرب من مدينة مراكش فاندثرت [163]. هل ينطبق هذا على أسماء قديمة اختفت وعوضت بأسماء جديدة هي التي نعاينها اليوم ؟ إنها تساؤلات تقتضي تكرار طرحها كلما رام البحث مقاربة ما له علاقة

156- البيدق أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971 : 20 (الهامش 17).

157- م.ن: 21 (الهامش 18).

158- م.ن: ص.ن (الهامش19).

159- م.ن: 25 (الهامش 29).

160- م.ن: 53 (الهامش 109).

161- ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة بحوث ودراسات رقم 22، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1997 : 129 (الهامش 136).

162- م.ن: 131 (الهامش 145أ).

163- م.ن: 63 (الهامش 137).

بطوبونيميا المنطقة، أو عند مباشرة مشروع إعادة تشكيل الخريطة الطوبونيمية لها [164].

قبل قدوم الفاتحين المسلمين إلى المنطقة، مرت بها حضارات مختلفة بعضها لم يتجاوز الساحل، وبعضها الآخر توغل داخل البلاد، غير أن ما يميز هذه المرحلة، أننا لا نعرفها إلا من خلال الآداب اليونانية واللاتينية، فالمعلومات التي وصلتنا عن السكان الأصليين، جاءت عرضا، من خلال ما ورد عند الجغرافيين والرحالة [165]، وهم يكتبون عن شعوب أخرى، فهل لهذا تأثير على الطوبونيميا القديمة للمنطقة؟ وما حدود هذا التأثير؟ وبعد وصول الفتح الإسلامي وجدنا أنفسنا أمام واقع آخر، وهو أن أخبار البلاد والسكان، ووقائع الفتوحات، لا نعرفها إلا من خلال نصوص تاريخية متأخرة [166]، وهذا ولا شك، كان له أثره في رسم الخريطة الطوبونيمية للمنطقة فيما بعد.

وعلى أي حال، فخلال الحديث عن الفتوحات التي استمرت زهاء الخمسين سنة، وردت أخبار عن مراكز حضرية كانت قائمة، على غرار: برقة، وطرابلس، ومنطقة المرناق، والقيروان، وسبيطلة، وسوسة، وقرطاج، وجلولاء، وغدامس، ولميس، وبغاي، وتاهرت، وتلمسان، وطنجة، وغيرها من الأسماء، التي شكلت محطات أساسية في مسار الفتوحات

---

164 - Boujrouf Saïd et Hassani Elmostafa, Toponymie et recomposition territoriale au Maroc : Figures, sens et logiques, in l'espace politique n°5 février 2008, p 47 - 51.

165- كراتشوفسكي أغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته إيفور بليايف، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 98/1 : 1963.

166- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، 121.

تفحصها يتبين من تفحصها الإسلامية[167]، وعن مراكز أخرى جديدة ظهرت، يتبين من تفحصها طوبونيميا، أن لها حمولات دلالية محلية متأثرة بما هو خارجي، مع التذكير أن هذه الأخبار جاءت في فترات متأخرة، وهذا ما يجعل مشروعية التساؤل قائمة. وخلال المراحل الموالية، وخاصة ابتداء من قيام أول الدول المستقلة، أقيمت مدن بأسماء محلية في الظاهر، لكنها في حقيقة الأمر لم تتخلص من المؤثر الخارجي، ونمثل لذلك بفاس[168]، ومراكش[169].

وبما أن طوبونيميا كل مجال جغرافي، تكون بالضرورة مرتبطة بجميع أوجه الحياة البشرية، فإن إحياء وبعث هذه الأسماء يبقى مطروحا بإلحاح، لما يمكن أن تسهم به في تثبيت الهوية الحضارية والحفاظ عليها، لذا فإن مقاربة الموضوع تقتضي الاستناد لبحث توثيقي موسع، ولعمل ميداني كبير، حتى يمكن للباحث أن يتفادى الوقوع في إغراء أسماء الأعلام المحفزة على التأويلات المتعارضة للأسماء العادية أو الشائعة، أو ذات الوقع الوطني، مع إغفال ما يخفيه تواترها مجاليا وتعاقبها زمنيا، يضاف إلى ذلك أن قراءة الاسم، وفق ما يمليه المدلول المباشر له، فيه بعض الإجحاف، لأن ذلك من شأنه أن يحجب العمق اللغوي والتاريخي للفظ، مما يفقده حمولته الحضارية.

167- ينظر ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، الطبعة الخامسة، بيروت 1418 هـ / 1998م 8/1: وما بعدها.

168- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط2، الرباط 1420هـ/1999م : 15 - 54.

169- مؤلف أندلسي من أهل القرن إلثامن الهجري، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، ط1، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م 15 - 16.

وتبعا لذلك، فلا يمكن عزل أي لفظة أو تسمية، تدل على علم جغرافي أو بشري خلال البحث في مضامينها ومعانيها، عن إطارها البيئي، وعن محيطها الاجتماعي والاقتصادي، وعن المؤثرات التاريخية والحضارية، وعن الخصوصية اللغوية والتعابير واللهجات المحلية المتداولة، سواء في الأزمنة السابقة أو في الوقت الراهن.

وفي محاولة لضبط رسم الكلمات الدالة على الأعلام الجغرافية أو البشرية لأسماء المواقع، فقد أوصت قرارات المؤتمرات المنعقدة لأجل ذلك، تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة، بأن تكتب هذه الأسماء كما يلفظها سكان المنطقة المحليين، وأن يتم نقل هذه الأسماء، وفق نظام لغوي دقيق يمكّنُ من الحفاظ على نفس النطق قدر الإمكان [170]. ومنذ مستهل التسعينات، بدأت هذه التوجهات تظهر للوجود فيما ينشر من خرائط وأطالس، خاصة بالنسبة للمظاهر والمعالم المهمة، وكإجراء أولي، ومن أجل الانتقال التدريجي لتنفيذ هذه التوصيات، فإنه يتم كتابة الاسم الدارج السابق بين قوسين تحت الاسم الحالي البديل، ولملاحظة هذه التغييرات، يمكن مراجعة ما صدر من أطالس وخرائط حديثة، بينما هناك بعض الأطالس التاريخية حاولت، قدر الإمكان، إثبات الاسم الصحيح، اعتمادا على مقارنات وبحث مكثف في المصادر التاريخية و المعاجم الجغرافية القديمة [171].

170- وهذا الإشكال يواجهه الباحث عند تعامله مع بعض المعاجم القديمة رغم فائدتها الكبرى لأنها تمكن من تتبع رسم اللفظ في الأزمنة السابقة، ونمثل لذلك بالحموي في معجم البلدان.

171- ينظر على سبيل المثال: مؤنس حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، القاهرة 1407 هـ / 1987 م: 156 وما بعدها في الباب الخاص ببلاد المغرب.

وهناك الكثير من الصعوبات في عملية التحقق من أسماء الأعلام، وهذه من الإشكاليات التي تواجه الدراسة الطوبونيمية لمجال من المجالات، ويمكن تلخيص بعض تلك الصعوبات فيما يلي:

1- وجود أكثر من لهجة في اللغة نفسها، خاصة من حيث إبدال الحروف وبناء الكلمات، وهي ظاهرة موجودة في جميع اللغات، وهنا يمكن الإشارة، إلى أن بلاد الغرب الإسلامي، كانت منذ أقدم عصورها تسودها لهجات مختلفة حسب المناطق، وإلى اليوم لا زال هذا الاختلاف باديا ضمن نفس اللغة التي هي الأمازيغية، حيث نجد مثلا في المغرب الأقصى: «ترفيت» في الشمال، و«تاشلحيت» في الوسط، و«تامازيغت» في الجنوب، واللهجة «الحسانية» في أقصى الجنوب، إضافة إلى اللغة العربية وما اشتق منها من لهجات دارجة بين السكان.

2- اختلال نطق نفس رسم الحرف من لغة إلى أخرى، فعلى سبيل المثال، يختلف نطق بعض الحروف مثل التاء، والجيم، والزاي، والكاف، والقاف، والغين، وغيرها بين اللهجات السائدة، وأيضا حسب المناطق وأصول المجموعات البشرية التي تستوطنها.

3- ليس هناك نظام نقحرة، من لغة إلى أخرى، قادر على نقل أصوات بعض الحروف بلغة متحدثيها، حتى مع استعمال علامات وإشارات مميزة أو إضافات.

4- إن كتابة الأسماء الطوبونيمية باللفظ المحلي، يعني بالضرورة كتابتها بشكل مخالف بلغة أخرى تستخدم نفس رسم الحرف، وتختلف مع تلك اللغة في نطق بعض الحروف. وهذا ما حدث ما بين اللغة الأمازيغية واللغة العربية.

5- إن إصدار خرائط أو أطالس، تشمل منطقة شاسعة، على غرار بلاد الغرب الإسلامي، بإحدى اللغات، كاللغة العربية على سبيل المثال، يتطلب توفر نظم «نقحرة» دقيقة، وهذه النظم لا تتوفر جميعها.

6- إن إصدار خرائط ووضع أطالس للمنطقة المدروسة، على درجة كبيرة من الدقة في كتابة الأسماء، يتطلب دراسة للكثير من النصوص والوثائق، وعمل ميداني مكثف، وهو ما يتطلب كلفة مادية عالية لا يسع الأفراد القيام بها بل يوكل ذلك للمؤسسات[172].

إن الحديث عن القضايا المرتبطة باللفظ طوبونيميا، تدفعنا إلى الحديث عن سبب التسمية، ويمكن هنا أن نورد بعض من هذه الأسباب، على سبيل المثال لا الحصر، فهناك :

1- الصفات الجغرافية: التضاريس (كالعلو، والارتفاع، والانخفاض، والانبساط، أو مظاهر السطح الأخرى، كالفجاج، والنتوءات الصخرية وغيرها)، المناخ (الحر، البرد، الرياح، التساقطات...)، الجهات (الجهات الأربع مثلا: شمال، شرق، غرب، جنوب)، المياه (البحار، الأنهار، الصبات العيون الآبار...).

الغطاء النباتي والنوع الحيواني: ويتمثل في نوع النبات والحيوان السائد في المنطقة، أو الجنس الغالب منها، أو ما اشتهر وجوده بها عبر تاريخها.

2- الدين والمعتقدات: ويكون اللفظ نسبة إلى اسم من الأسماء المرتبطة بما هو مقدس.

172- الزرقطي إبراهيم موسى، أسس الأسماء الجغرافية: 36 -35.

3- الأشخاص أو العشائر أو القبائل أو الشعوب أو صفات الشعوب، ويكون ذلك إما لتخليد ذكر، أو لتحديد مجال انتشار واستيطان، أو لبيان خصوصية معينة.

4- الأحداث والوقائع: وقد يستوحى الاسم من الوقائع والأحداث التي عرفتها المنطقة، والتي تركت أثرها في عقلية المجموعات البشرية المقيمة بها عبر الزمن[173].

هذه الأسباب، جعلت أغلب أسماء الأعلام ذات معنى واضح ومعروف، غير أن بعضها يلفه الغموض، وذلك راجع بالأساس إلى:

1- الجهل باللغة التي أطلق بها الاسم على المعلم الطوبونيمي، وقد تكون هذه اللغة بادت أو تطورت، بحيث لم يعد معنى الاسم معروفا.

2- التطورات والتغيرات التي طرأت وتطرأ على اللغات، وعلى الأسماء الجغرافية نتيجة لتطور اللغة نفسها، أو لاتصالها بحضارات أخرى، أو لتعاقب حضارات مختلفة على المنطقة[174].

وقد يحدث أن تعرف بعض الأسماء تغيرات في رسمها مع مرور الزمن، أو نتيجة للظروف الحضارية واللغوية التي تمر بها المنطقة، ويتم تغيير هذه الأسماء لأسباب عدة منها:

1- التخلص من تكرار الاسم ضمن الوحدة المجالية الواحدة.

2- كون الاسم أو جزء منه نابيا يمس الذوق العام.

173- الزقرطي إبراهيم موسى، أسس الأسماء الجغرافية: 36 -35.
174- م .ن : 39 .

3- كون الاسم يمس الشعور الوطني، كالأسماء التي لها علاقة بالاحتلال والاستعمار.

4- تغير الظروف السياسية في الدولة، كانتقالها من نظام سياسي إلى آخر.

5- زوال الاحتلال العسكري، أو الهيمنة الحضارية.

6- طول الاسم وغموضه[175].

ونظرا للقيمة الحضارية والتاريخية للاسم الطوبونيمي، ولعلاقته بالتراث والوثائق، ولما له من ارتباط بالملكيات الفردية، فإن تغيير هذا الاسم يجب ألا يتم إلا في أضيق الحدود، وللضرورة القصوى، ولأسباب وجيهة. ومن الطبيعي أن تكون الأماكن قد شهدت بعض التغيير في إطار ما يعرف بعلم الأصوات الكلامية، وعلم التشكيل الكلامي، مع مرور مئات السنين، إذ قد تتحول الحروف الصامتة من لغة إلى أخرى، وتتبدل أماكن الحروف الصامتة في نفس الكلمة بين اللغات، بل في اللغة نفسها.

لذلك نقول، إن الطوبونيميا كدراسة موسعة لأسماء الأعلام البشرية، وأسماء الأعلام الجغرافية، في حيز مجالي مرتبط بظواهر طبيعية وبشرية مختلفة، لها دور حاسم في الكشف عن الكثير من الحقائق المرتبطة بالإنسان في علاقته بالمجال، ورغم ما يمكن أن نلمسه من تداخل بين مصطلح الطوبونيميا، ومصطلحات أخرى مثل العلم

175- م. ن: 44-42.

الجغرافي أو البشري، أو المواقعية، أو الأماكنية، فإن الطوبونيميا تعد الصيغة المعبرة على مبحث علمي يمثل تخصصا قائما بذاته، له مناهجه وتقنياته وفروعه، وقد أضحى هذا العلم يهم كل التخصصات في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل قد يتجاوز ذلك أحيانا إلى بعض العلوم الأخرى.

وفيما يتعلق بطوبونيميا بلاد الغرب الإسلامي، فلا شك أنها ستشكل مصدرا لا ينضب من المعلومات المكملة لما ورد في النصوص المكتوبة، أو لما تضمنته المواد واللقى الأثرية، أولما يمكن أن تجود به الرواية الشفوية من إشارات. غير أن هذا يتطلب التأسيس لممارسة علمية متخصصة تعتمد أحدث الوسائل والمناهج للتأصيل لهذا العلم الفتي، الذي تتجلى قيمته العلمية في تعدد المجالات التي يمكن توظيف نتائجه فيها. والذي يمكن التأكيد عليه أن أي اسم أو لفظ، يدل على موقع، لا يمكن عزل مضامينه عن الإطار البيئي، وعن المعطيات السوسيو- اقتصادية، وعن تأثير الظروف والمتغيرات التاريخية، وأيضا عن خصوصية اللغة بمختلف تجلياتها، والتعابير واللهجات المحلية السائدة بين المجموعات البشرية في المجال المدروس.

توجيهات منهجية في البحث الطوبونيمي بالغرب الإسلامي[176]

ترجمة : ذ. رضوان غزال
مراجعة : د. محمد البركة

لكي يتم ضبط الأعلام الجغرافية أو أسماء الأماكن بطريقة صحيحة، وجب الاستناد على مجموعة من المبادئ، والاعتماد على العديد من المعطيات. والصفحات التي بين أيدينا تهدف إلى توجيه الباحث في ميدان الطوبونيميا إلى هذه المبادئ وهذه المعطيات، قصد التمكين ما أمكن من تفادي المنزلقات التي يمكن أن تعترض سبيل الباحث في بعض الأحيان بطريقة غير متوقعة.

المحور الأول: منطلقات في البدء

لكل ذلك وجب على الباحث ألا يثق في المظاهر المرتبطة بالمكان، وأن يأخذ بعين الاعتبار الصيغ القديمة للأسماء قيد البحث والدرس Toponymes، وأن يكون على معرفة باللغة المستعملة وخصوصياتها المحلية، وأن يطلع بمعرفة المضمون التاريخي والبشري لأسماء الأماكن، كما وجب عليه اعتماد التأمل السريع لهذه العناصر قبل البدء في دراسة كيفية إجراء البحث عن الاسم المطلوب.

176- مثل المقال الصادر عن (Société française d onomastique) بعنوان (Conseils méthodologique pour les recherches de toponymie) أساس هذا المقال، فهو مقال مترجم بتصرف ومزيد، إذ سعينا إلى تكييف مضامينه بما يناسب ضبط الأعلام الجغرافية في الغرب الإسلامي، نظرا لأهميته المنهجية.

الصيغ القديمة لأسماء الأماكن: تعتبر الصيغة الحديثة لأسماء الأماكن الأكثر قدما، نتيجة للتطور الذي جعل الصيغ الأصلية صعب التعرف عليها Méconnaissables، إما نتيجة تطور صوتي عادي، أو تشويه عرضي، خاصة عندما لا ندخل في الاعتبار قيمة الصيغة الأولى، لذلك وجب على المتخصص Le toponymiste أن يستند في أسماء الأماكن على الصيغ القديمة الممكن العثور عليها في وثائق تنتمي لحقب متعددة، وذلك من أجل الوصول إلى الاسم الأصلي من جهة، وحتى تتضح ملامح تطوره من جهة ثانية.

فهناك بعض المناطق التي لها أهميتها مثل الجبال والمجاري المائية، لكن أهميتها هاته تزداد عندما تكون أولى تجلياتها على مستوى الاسم تنتمي للعصور القديمة، أما بالنسبة للأسماء الصغيرة للأماكن Microtoponymes مثل أسماء الأحياء، فنادرا ما تعود تسميتها إلى العصر الوسيط، لذلك فقد نجد الصيغ الأكثر قدما هي الأقل اختلافا عن الصيغ الحديثة، مما يجعلها نافعة مساعدة لتحديد زمن ظهور اسم المكان.

وهكذا يبقى من الضروري جمع أكبر عدد ممكن من الصيغ القديمة، لأجل اختيار أصوبها وتمثلاتها في مختلف الأزمنة، كما يجب الاحتياط من الشهادة الواحدة، فبعد عام ألف ميلادية تقريبا، فضلت صيغ اللهجات المحلية على صيغ اللغات اللاتينية، لأنها قريبة أكثر من الكلام المتداول، على أنه توجد صيغ لاتينية محرفة، وهي صيغ ترجمت من طرف كتَّاب لم يستطيعوا ترجمة أسماء الأماكن، لأنهم لم يفهموا معانيها في اللاتينية، مما يستحسن معه الإشارة إلى تاريخ ونوع التقليد في الكتابة في حدود الإمكان، أو إدراج مقتطف يعبر عن هذا التقليد، أو كتابة كل شهادة تاريخية متوصل إليها.

لغة أسماء الأماكن : من الواضح أن دراسة أسماء الأماكن على اختلاف أصولها، لا يمكن أن تتم دون الإلمام التام بكل اللغات التي تعاقبت على المكان الواحد، وكذا التعرف على تطورها التاريخي. فإذا كانت دراسة أسماء الأماكن أو الطوبونيميا أكثر تفهما لذلك، فلا يمكن للباحث في هذا العلم الاستغناء عن التعمق في هذه اللغات، سواء في لهجاتها الحديثة أو في تغيراتها المتراكمة عبر القرون. إذ العدد الكبير من الأسماء الصغيرة للأماكن مأخوذة من أسماء أو ألقاب، أو من مجال معين صغير في بعض الأحيان، لذلك يصبح من الضروري البحث عن الصيغة الأصلية لاسم المكان الذي يكون غالبا محرفا عن الصيغة الحديثة أو المعاصرة، وأيضا معرفة الطريقة الصحيحة لنطقه.

وتبقى دراسة أسماء الأماكن التي لا يمكن شرحها بواسطة كلمة من لغة معروفة ولا بواسطة اسم شخص، كثيرة في الأسماء الصغيرة للأماكن، إذ لا يمكن القول بأنها من أصل كذا أو كذا، إلا إذا لم يلائمها أي من الفرضيات الممكنة. على أن الاحتياط واجب في حالة ما إذا كانت الكلمة من أصل لغة لا نعرف عنها أي شيء، لغة تستخدم الأصول بصفة مكثفة، وتمتلك جاذبية أكبر، إذ نادرا ما نجد الأسماء الصغيرة للأماكن تنحدر مباشرة من أصول لغوية قديمة جدا.

ولتفادي بعض المنزلقات، وجب عدم الخلط بين قدم الاسم باعتباره اسم مكان لمكان محدد، وقدم الكلمة أو الأصل المشتق منه هذا الاسم، حسب ما إذا كان هذا الأصل ينتمي أو لا ينتمي للمعجم اللغوي السائد. على أنه يمكن أن نجد بعض الحالات التي يتم فيها إضافة تغييرات على الاسم، أو إعادة تفسيره بأصول لغة قديمة، كما يمكن أن نجد عددا من أسماء الأماكن مشتقة من أصول لغوية قديمة.

معرفة الأماكن : إن المعرفة الجيدة للمكان الذي ندرس اسمه، شرط آخر لا يمكن الاستغناء عنه لفهم سبب تسميته، مع العلم أن كل اسم للمكان يشكل حالة خاصة. وسبب التأكيد على هذا الشرط، هو أن غيابه يتيح للتفسير أن ينقلب إلى تخمين فقط، لكن بالزيارة الميدانية للمكان أو بمعرفته عبر شخص مطلع بمعرفته جيدا، يمكن أن نتفادى التفسير الخاطئ لاسم المكان، فالحسم مثلا في أن اسم المكان المحدد يشير إلى مكان مقعر أو محدب، يمكن أن يتغير بعد المعرفة الجيدة له ليصير المقصود به مكان منبسط.

على أن الطوبوغرافيا لا يمكنها أن تقدم لنا إثباتا قطعيا في التفسير، لأن اسم المكان يمكنه أن يكون محتفظا بذكرى أسماء نباتية أو عمرانية لم تعد موجودة بذلك المكان، لهذا فإن استحضار العامل البشري والتاريخ المحلي بعين الاعتبار، يمكن أن يقود إلى تفسير مقبول لاسم المكان.

لذلك وجب تجنب اعتماد تفسير ما لاسم مكان بطريقة ارتجالية، دون مراعاة الاعتبارات المنهجية المقدمة سلفا، بل لابد للدراسة من تجاوز البحث عن معنى اسم المكان إلى التساؤل عن سبب تسميته، فالطوبونيميا علم لا يقتصر على البحث الإيتيمولوجي واللغوي فقط، بل يتجاوزه إلى البحث التاريخي والاجتماعي. إذ الباحث في أسماء الأماكن رغم الأبحاث المنجزة، يبقى مدعو إلى تقديم تفسير للعديد من أسماء الأماكن التي لاتزال أصولها ومعانيها مجهولة عنا.

المحور الثاني: ضوابط في الإنجاز

تشمل عملية ضبط الأعلام الجغرافية أسماء البلدان والمدن، وأسماء الأحياء، وأسماء المجاري المائية (Hydronymes)، وأسماء المرتفعات (oronymes)، وأسماء الطرق والمسالك (odonymes)...، حيث خضعت هذه الأسماء بحثا عن صيغها القديمة، للدراسة من قبل بعض الكتابات، لكن تناولها جاء عاما من جهة أولى، ومن جهة ثانية جاءت بعض الاشتقاقات المقترحة للاسم بعيدة عن الواقع وغير موثوق فيها، مما فرض ضرورة عدم نسيان ذكر اسم المكان بصيغته الرسمية والمحلية بالموازاة مع ذكر الاسم المقترح، وذلك تيسيرا للمقارنة.

وحتى يكون ضبط أسماء الأماكن موفقا، وجب أولا القيام بجرد شمولي للسكان بغرض التعرف على الأشخاص المحتمل تقديمهم للمعلومات عن المكان وتاريخه، وجمع أكبر عدد من المعلومات حول أسماء الأماكن المستعملة اليوم ثانيا، وتوجيه البحث إلى النظر في الوثائق على تنوعها ثالثا.

الوثائق: أثناء عملية البحث في أسماء الأماكن، تعترض الباحث حالة من الندرة في أصول هذه الأسماء ومرجعيتها اللغوية والتاريخية، مما يدعو الباحث إلى ضرورة اعتماد وثائق متعددة ومتنوعة، توفر له مرجعا هاما لأصول هذه الأسماء واشتقاقاتها اللغوية ومعانيها التاريخية. حيث تشتمل الخرائط التفصيلية، وخرائط ذات المقياس 1/25000، وخرائط المسح الحديثة، وخرائط المسح القديمة، على عدة

أسماء لأماكن تعرضت للنسيان، يصعب العثور على مواقعها وقد يستحيل.

وتشمل المصادر المكتوبة أو غير المكتوبة التي يمكن اعتمادها على معلومات خاصة بالجماعات أو السلالات أو الجهات وغير ذلك، مما يوضح بعض من غموض أسماء الأماكن. إضافة إلى كتب الطبقات والأعلام والتراجم وسجلات الحالة المدنية، التي يمكن الاعتماد عليها للتأكد من وجود أسماء عائلية حملت بعض الأماكن أسماءها، وعقود البيع والحوالات الحبسية والنوازل الفقهية، والشكايات العدلية والكتب المناقبية، والمصادر الجغرافية والرحلات، التي تذكر في مضامينها العديد من الأسماء الجغرافية والأعلام المكانية، وهي مصادر توفر سندا مرجعيا للباحث في الطوبونيميا.

على أن دراسة أسماء الأماكن لا ينبغي لها أن تقفز على مجموع الدراسات المنجزة في التاريخ المحلي أو لنقل الدراسات المنوغرافية، التي يمكن استشارتها والنظر إليها تأكيدا وتمحيصا لما قد يعتري البحث في أسماء الأماكن من منزلقات، ليس لكونها تمثل مرجعا مطلقا في البحث الطوبونيمي، بل لكونها تمثل رافدا حين تضافره مع بعض المصادر السالفة الذكر تكون قريبة للصواب.

وإلى جانب كل هذا نشير إلى أن الأسماء الصغيرة للأماكن هي جد نادرة في الوثائق والمصادر المنتمية للعصر قبل الوسيط، مما يجعل البحث عنها من قبيل الصدفة، بل ويجعل جمعها تحديا للباحث في الطوبونيميا.

الرواية الشفوية : يتعلق الأمر بمظهر بالغ الأهمية في ضبط الأعلام الجغرافية، إذ يجب أن تكون الأسئلة مرتبطة بالموقع المحدد لاسم المكان، فهناك بعض الأماكن المشار إليها في الخرائط لكنها غير دقيقة، مما لا يعطي الاستعمال الحقيقي للاسم، ولا بطريقة النطق الصحيحة له.

على أن البحث في الروايات الشفوية يمكن أن يساعد في جمع أسماء لأماكن قد تكون في بعض الأحيان قديمة، لم تذكرها المصادر المكتوبة، مما يجعل جمعها واجب، وذلك بالتوجه إلى أشخاص يعرفون جيدا الأماكن واللهجات المحلية، والتحدث إليهم، وجمع بعض المعطيات منهم عن المكان وأسمائه، رغم أنه وللأسف أصبح من النادر العثور على أقدمهم بسبب التطور الاجتماعي والديمغرافي للمدن.

على أنه وجب الحذر من اسم المكان المذكور من طرف مصدر واحد، كشكل واحد قديم لاسم المكان، إذ المعلومات المجموعة يمكن أن تكون أحيانا متناقضة، لذا وجب المقابلة بينها وترجيح أصوبها، مع ذكر الأسماء الواردة ومعانيها المحتملة، بل ونقلها في خريطة عادية للمنطقة المدروسة، وذلك تيسيرا للباحثين محتملين مستقبلا.

بطاقة اسم المكان : عندما توفر المادة المصدرية لعَلَم جغرافي محدد معلومات هامة ودقيقة، يمكن حينها أن يتم تدوين كل المعلومات المجموعة في بطاقة تعطي نبذة جامعة عنه، بطاقة تخضع لتفكير عميق، آخذ بالاعتبار المعرفة التامة بالصيغ القديمة لأسماء الأماكن، وباللغة المستعملة وخصوصياتها المحلية، وبالمضمون التاريخي والبشري لهذه الأسماء، وكل ذلك من أجل إعطاء العَلَم الجغرافي التفسير المنطقي المقنع، وضبطه وفق قواعد علمية متعارف عليها.

وتشتمل هذه البطاقة على:

1- اسم المكان الرسمي اليوم (المساحة، السكان، الطبوغرافية).

2- اسمه المحلي (في الإملاء وفي اللهجة المحلية).

3- طريقة نطقه (من الأحسن عبر الحروف الأبجدية الصوتية).

4- صيغه القديمة (مع تاريخ ومصدر الوثائق).

5- موضعه على الخريطة (باعتماد خطوط الطول والعرض).

6- معنى الاسم وكيف تمت تسميته.

7- خصائص الاسم وما يرتبط به من معلومات...

ملامح الطوبونيميا المائية بالمغرب والأندلس من خلال المصادر الدفينة

د. سعيد بنحمادة

تختص الطوبونيميا بدراسة أسماء الأماكن من حيث دلالاتها، وتطورها عبر الأحقاب الزمنية، اعتمادا على علوم مساعدة كالتاريخ والجغرافيا والانثروبولوجيا وغيرها. فهي ذات أصل إغريقي حسب إجماع الباحثين؛ فاللفظ يتكون من جذعين دلالين: «Topos» ويعني المكان أو الأرض، و«Onoma» ومرادفه الاسم. ومن ثم فالمقصود بها اسم المكان أو اسم الأرض، إلا أنها لم تأخذ اهتمامها العلمي إلا خلال القرن 19م [177].

وتتسم الطوبونيميا باتساع مجالها وفروعها؛ ففيما يخص اهتمامها بدراسة المجالات الطبيعية فإنها تتفرع إلى قسم يهتم بأسماء التضاريس «Oronymie»، وآخر يتعلق بالمجاري المائية «Hydronymie» أي «الطوبونيميا المائية».

ولتحقيق البعد العلمي للدراسات الطوبونيمية، لا بد من احترام القواعد العلمية والمنهجية؛ ومنها مراعاة وضعية الأماكن المعنية بالبحث، وأشكالها القديمة، وخصوصياتها المحلية، ونسقها التاريخي

177-انظر الفصل الأول من الكتاب: الطوبونيميا بالغرب الإسلامي مقدمات في الفهم.

والبشري[178]. فالمهتم بالطوبونيميا عليه الارتكاز في عمله على ما تقدمه الوثائق التاريخية بغية إيجاد الاسم الأصلي وتتبع تطوره؛ فالفترات التاريخية القديمة والمصادر المكتوبة تقدم إشارات هامة إلى المشتغل بالطوبونيميا المائية[179].

ومن ثم فالفائدة متبادلة بين الطوبونيميا والتاريخ؛ فإذا كان التاريخ يزود الطوبونيميا بمعلومات حول المجال، فإن الطوبونيميا تسعف في إعادة النظر في آليات اشتغال المؤرخ، الذي لم تعد وظيفته مقتصرة على الحديث عن التاريخ البطولي، وإنما أضحت مهمته تستند إلى النتائج المعرفية والمنهجية للحقول العلمية الأخرى.

وبناء على ذلك تأتي أهمية المصادر الدفينة في توفير معلومات ذات بعد طوبونيمي، سيما إذا ما تعززت بالتحريات الميدانية والبحث الفيلولوجي، وهو ما نحاول القيام به في هذه الدراسة، حيث الغاية منها الوقوف على الدلالات التي اتخذتها أسماء بعض المواقع المرتبطة بالماء بالمغرب والأندلس في المصادر المكتوبة خلال العصر الوسيط؛ دراسة تبغي الوقوف على موضوع الطوبونيميا المائية من خلال محورين اثنين، يهدفان إلى التعريف ببعض الأمثلة من أسماء الأعلام الجغرافية ذات العلاقة بالماء.

178- انظر الفصل الثاني من الكتاب: الطوبونيميا بالغرب الإسلامي عناصر في المنهج.

179 - «Onomastique», Septembre, 2006, pp: 1- 4. Marianne Mulon: Toponymie, in Encyclopedia Universalis, sur CD.

غالبا ما تعترضنا أثناء تصفح مصادر الغرب الإسلامي العديد من أسماء الأعلام الجغرافية ذات الصلة بالماء، كالعيون والمجاري المائية، والأودية والآبار، وتقنيات السقي والري، والبساتين والمنتزهات...، وهي أسماء تستمد مرجعيتها من أصول مختلفة، لكنها تشير إلى نوع واحد من أنواع الطوبونيميا.

فالعيون مثلا، على أهمية المصادر في توفير معلومات طوبونيمية عنها، نجد لها ذكرا وافيا؛ فمن العيون التي عرفت بها مدينة فاس؛ تذكر «عين عمير» خارج باب فتوح، التي تنسب لعمير بن مصعب بن خالد وزير إدريس الثاني؛ (سميت به لنزوله عليها هو وقومه من الأزد)[180]. و«عين بوخزر» نسبة إلى الولي أبي خزر يخلف بن خزر الأوْرَبي، من بيت بني الأوْرَبيين، الذي (ركز عصاه في الأرض التي ليس بها ماء وجذبه، فانفجرت هنالك عين عذبة كثيرة الماء؛ فسميت العين بكنيته)[181]، وتقع العين بحومة روس الرحى، ولا زالت تعرف بهذا الاسم، وماؤها هو الواصل إلى زاوية سيدي عبد القادر الفاسي بمدخل حزمة القلقليين.

وبفاس كذلك تتحدث المصادر عن «عين علون» نسبة إلى عبد أسود اسمه علون، كان يقطع الطريق بها، فأمر إدريس الثاني بقتله،

180-ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م: 13. علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1387هـ/1967م: 18. ابن القاضي، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط 1973م:1 / 25، 28، 29.

181-ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى: 42.

وقد سمي أحد المساجد بها فعرف بـ«مسجد عين علون»[182]، وتوجد العين حاليا أسفل عقبة الشرابليين. إضافة إلى «مسجد زقاق الماء» بعدوة القرويين[183].

أما الآبار فيلاحظ أن أسماء بعضها ارتبط إما بالأشخاص، وإما بلون مياهها الراكدة؛ فقد جاء في أحد الأمثال الشعبية الأندلسية قول العامة: «أعمق من بير ابن صمادح الذي وقع فيه الحمار جذع ووصل لقاع»؛ والمقصود به البئر الذي أحدثه أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم بالله، أحد ملوك الطوائف، بالمرية[184]. وفي مَثل آخر أشير إلى خطورة تناول مياه الآبار الراكدة؛ فقيل: «طعنة بمزرق، ولا شَرْبَ من بير أزرق»[185]. وهو مثل يشبه رواية البكري[186] عن أحد آبار إفريقية؛ إذ يقول بشأنه: (وبإزاء مدينة مرسى الخرز بير وبية الماء تعرف ببير أزرق، يقول أهلها: «طعنة بمزراق خير من شربة من بير أزرق»).

وبقصبة الحمراء بغرناطة النصرية بالأندلس عثر على آثار «جب المَلك» المعروف بـ«الجب القديم»، نسبة إلى أحد ملوك بني الأحمر،

182- التميمي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي بتطوان، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط1، 2002م: 58/2. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م: 39. الجزنائي، جنى زهرة الآس: 112- 113.

183- التميمي، المستفاد: 2 / 212.

184- الزجالي، ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، فاس 1971م: 121/2 (مثل رقم 545).

185- م.ن: 247/2. (مثل رقم 1066).

186- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان، الجزائر، 1857م: 55.

وهو بئر كان يزود عاصمة بني الأحمر بالماء للشرب والسقي؛ وقد بني بالآجر، وله أربعة أروقة ذات عقود مستديرة، تقوم على دعائم مربعة الشكل تحمل أقبية أسطوانية، ويقدر ارتفاعه بأربعة أمتار، وحجمه بـ70 و10 على 38 و11 مترا[188].

أما بخصوص تقنيات السقي، فنستدل على أهميتها الطوبونيمية بأحد الأمثال الشعبية المؤرخة لإحدى السواني؛ وهو قول العامة: «سينية هيدور، أبت ما تدور»[189]. وقول العامة أيضا: و«مهندس بَلْمَ، اقطع العَجَل، اكسار البزّ»، و«بلم» لعلها Balma del Rio على الوادي الكبير؛ والعجل: العجلة أي عجلة الناعورة؛ والبز ما يربط بين أجزاء الخشب في الناعورة[190]. كما أن أحد الأنهار قرب الجزيرة الخضراء بالأندلس، ومن كثرة جر الماء منه للمدن، عرف بـ(وادي السقائين)[191]. و«ساقية السلطان» بغرناطة النصرية[192]. كما سميت مدريد الإسلامية

188-ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1393 هـ/1973م:1 / 548. مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد محمود عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب1972م: 306.

189-الزجالي، ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام: 2 / 427. (مثل رقم: 1861).

190-م.ن: 2 / 349 (مثل رقم 1534).

191-ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (تاريخ إسبانية الإسلامية)، تحقيق وتعليق إ.ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط2، 1956م: 298، 304.

192-عبد الله بن بلقين، التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحقيق إ. ليفي بروفنصال، القاهرة1955م:22-21. ابن الخطيب، الإحاطة:1 / 387، 442. العمري، مسالك الأبصار:157-156. القلقشندي، صبح الأعشى:5 / 209، 261. مؤلف مجهول، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق محمد رضوان الداية، دار حسان، دمشق، ط 1، 1404هـ:92. وتشير المصادر إلى الحمراء وغرناطة باسم «قصبة غرناطة» و«قصبة الحمراء». لذا فمن الضروري عدم الخلط بين هذه الأخيرة ومدينة الحمراء، لأن «قصبة الحمراء» ليست سوى جزءا من الحمراء. العمري، مسالك الأبصار: 156، 158. عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1417هـ/1997م:189. جيمس دكي، غرناطة مثال من المدينة العربية في الأندلس، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، منشور ضمن الكتاب الجماعي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، تشرين الثاني / نونبر1999م:2 / 189.

بمجريط، وهو لفظ مركب من كلمة «مجرى»، ومن النهاية اللاتينية الدارجة «يط» التي تدل على التكثير، ليصبح المعنى التقريبي لمدريد هو المدينة ذات المجاري المائية الكثيرة[193]. وبجبل طارق ارتبط اسم أحد المواقع الأثرية الموجودة في السفح الغربي للصخرة بالماء، في إشارة إلى أهمية الجهود التي كلفها جر المياه إلى المراكز الحضرية؛ فنعت بـ «أبواب الماء»، ويقع وراء الميدان الكبير المسمى حاليا «ميدان كاسمنت la Plaza de Casment» الذي يوجد تحت الهضبة التي أنشئ بها القصر الأندلسي؛ وهذه الأبواب، التي هي مدخل مدينة جبل طارق، هي عبارة عن صفين من ثلاثة عقود بينهما مسافة أربعين مترا، وكان أحدها يطل على الماء، لذلك سميت به[194]. كما تتحدث الروايات بلشبونة عن «عقد أبواب البحر» الذي يقع في نهاية المدينة على النهر، وهو قوس علوه حوالي أربعة أمتار[195].

هذا، ولم تكن البساتين أقل تعبيرا عن الطوبونيميا المائية بالمغرب والأندلس؛ فهي الأخرى تحكمت في أسمائها دلالات مرتبطة

192- Georges Marcais: L'art musulman, Quadrige/P.U.F., Paris, 2ème Edition, 1981, p: 130-131. ومن مظاهر التأثير العربي الأندلسي على الثقافة الإسبانية تسرب مصطلح «الربض» إلى اللغة الإسبانية باسم «Arrabal».

193- Evaniste Levi-Provençal: *Histoire de l'Espagne musulmane*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1999, T3, p: 328. محمود علي مكي، مدريد العربية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (د.ت): 48.

194- Thoams F. Glick: Irrigation and society in medieval Valencia libro.uca.edu/irrigation.fitm, p : 184. والموقع يحمل لوحة تذكارية كتب عليها (أنابيب على موقع أبواب الماء القديم). عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية: 294.

195- [illegible]: 420. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة: 467-469.

بالأشخاص كالملوك؛ ومن الأمثلة على ذلك «رياض السيد» بمالقة [196]، و«بَحيرة السلطان» بإشبيلية [197]، وسميت كذلك نسبة إما إلى المعتمد بن عباد على عهد ملوك الطوائف خلال القرن 5هـ/11م، وإما إلى السلاطين الموحدين الذين اشتهرت إشبيلية في عهدهم ببحائرها؛ بدليل أن التجربة الفلاحية لابن بصال ارتبطت بخدمة المنتجعات الملوكية لابن عباد، فحولها إلى مختبر لتجاربه الزراعية، لذلك عرف في الأوساط الفلاحية الأندلسية بـ(الشيخ الفلاح)، و(الماهر في الفلاحة) (الذي شهدت له التجربة بفضله) [198]. أما «بَحيرة السلطان» الموحدي بالمدينة نفسها فأشرف عليها المهندس الحاج يعيش [199]. كما وجدت بمراكش «بَحيرة الناعورة»، وهي إحدى البحائر التي حظيت بعناية المرابطين والموحدين معا [200].

ومن البساتين المشهورة كذلك نذكر «جنة العريف»، وهو منتجع صيفي لسلاطين بني نصر خارج العاصمة [201]، وقد اشتُهر بـ(سلسبيل

196- ابن فركون، ديوان ابن فركون، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ط1، 1407هـ/1987م:210.

197- ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1383هـ/1964م: 467، 469.

198- أبو الخير، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق وتقديم: محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990م: 1 / 419، 2 / 743. 462. 836. 813. ابن العوام، كتاب الفلاحة، دراسة وتعليق غارسيا سانشيز وإستفان فرنانديز ميخو، مدريد 1988م: 1 / 9. المقري، نفح الطيب: 3/151.

199- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة: 467-469.

200- ابن الزيات، التشوف: 469.

201- ابن الخطيب، الإحاطة: 25 /1. ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1400هـ/ 1980م: 121.

ماثه)[202]، و«دار العروسة»[203] وكلاهما بضاحية غرناطة، و«منية نصر» بقرطبة التي سميت أيضا بـ«أرحاء الحناء»، وكان يوجد بجهتها الشرقية موضع (يعرف بالركين، وهو على النهر، ... وبين النهر وبين الركين موضع يتوب به النبيذيون، وينتجعه الظرفاء فلا يكاد يخلو منهم)[204]. و«جبل إيل»، وهو (جبل تحته البساتين وبسيط تسرح فيه العيون)[205]. و«عرصة مُسونة» بفاس نسبة إلى بيت بني مسونة اليفرنيين أحد بيوتات فاس الكبرى[206].

أما أبرز الدلالات التي اصطبغت بها أسماء البساتين الأندلسية فتتعلق بالقيم الدينية المرتبطة بالفردوس؛ فالحديقة أو المنتزه الأندلسي والمغربي هو أحد أشكال المساحات الخضراء، ويتكونان بالأساس من المصاطب والمدرجات، التي تسقى بواسطة الجاذبية، ويقام بها «التقسيم»، وهو بركة أو حوض لتجميع المياه وإعادة توزيعها عبر شبكة من القنوات والسواقي، التي تفصل بينها المسالك والممرات المحورية، الخاضعة مثلها مثل باقي مرافق الحديقة، لتشكيل هندسي رباعي[207].

202- ابن فركون، ديوان ابن فركون: 174، 275.

203 - Leopoldo Torres Balbás: «Dar al-Arusa y las ruinas de palacios y albercas granadinas situados por encina del Generalife», Revista al-Andalus, Vol. XIII, 1949, pp: 185- 197.

202- ابن فركون، ديوان ابن فركون: 174، 275.

204- الحميري، صفة جزيرة الأندلس: 187.

205- أبو الفداء، تقويم البلدان، تصحيح رينود وماك كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت (نسخة مصورة عن دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840م): 179. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م:2 / 203.

206- ابن الأحمر، بيوتات فاس: 67.

207- يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع304، ربيع الآخر 1425هـ/يونيو2004م: 222 -223.

وإذا كانت بعض الدراسات المعاصرة قد وصفت الأندلس بـ«حديقة
الحضارة الأندلسية» 208، فلأن المصادر الأندلسية تطفح بإشارات
عديدة تجمع بين الماء والترف والحدائق والمنتزهات في رسم ملامح
الطوبونيميا المائية، ومن جملتها النصوص المتواترة عن «الحير» 209
الذي هو في الأصل منتزه للترفيه والقنص 210. وهو ما تؤكده المقارنة
بين اللفظ العربي وغيره من اللغات الأخرى؛ فهو في مقابل كلمة
«الفردوس Paradeisos» اليونانية، المشتقة من مصطلح «Pairidaeza»
الفارسي القديم، وهو لفظ مكون من «Pairi» وتعني حول، و«daeza»
أي الجدار أو السور 211. ومن ثم فالحير هو الحديقة أو المنتجع المسور
الذي يضم نباتات وحيوانات نادرة مخصصة للترفيه عن الأمراء وتزويد
المطبخ الملكي بالطعام 212.

كما أن الأصل اللغوي للحير هو «الحائر» الذي يعني الحوض أو
المزرعة التي تسقى بالأحواض المائية. كما نعت كذلك بـ«الولجة»،
والروض، والمرج، مثل «مرج الحمار» قرب إشبيلية 213، مما يعني أن
الطوبونيميا المائية المرتبطة بالحدائق والمنتزهات قد تحكمت فيها
دلالات الترف.

208- م.ن: 222.

209- ابن سعيد، المغرب:2 / 84، 251. ابن الخطيب، الإحاطة:1 / 117. المقري، نفح الطيب:1 / 745.
3 / 315.

210- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت): 208 /2، 327 - 328.
ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ط3، 1414هـ/1994م:4 / 226.

211- عن تصميم الحدائق الفارسية واليونانية وغيرها من الحضارات، انظر يحيى وزيري، العمارة
الإسلامية: 210، 214.

212- ابن سعيد، المغرب:2/153.

213- الحميري، صفة جزيرة الأندلس:196.

ومما يمكن الاستدلال به في هذا في الصدد «حور مؤمل» وهو اسم لمتنزه بغرناطة، سمي بذلك نسبة إلى مؤمل؛ وهو أحد رجال دولة باديس بن حبوس الصنهاجي الملقب بالمظفر. وقد حكم غرناطة عقب الفتنة البربرية من 428 إلى 467 هـ/1037إلى 1074م [214].

المحور الثاني: الطوبونيميا المائية المعمارية

إن أهمية الماء في الفكر المغربي الأندلسي، تتعدى المنحى الطبيعي المشار إليه في أسماء بعض الأعلام الجغرافية، إلى أثر آخر ممثلا في أسماء المدن التي يستمد بعضها مضمون تسميته من الخصوبة والابتهاج والتعلق بالحياة؛ فمدينة رية باللاتينية، وهي الاسم القديم لمالقة، تعني (سلطانة، فهي بلاد سلطانة البلاد). وطليطلة (تأويل اسمها، أنت فارح) [215]. وغرناطة معناها (رمانة بلسان عجم الأندلس، سمي البلد لحسنه بذلك) [216]. أما عن خصوبة ضاحية إشبيلية فتقول الأمثال الشعبية: «زيتون الشرف، ما زاد وَقْر، زاد فقر» [217]، والشرف جبل مطل على إشبيلية. وقول العامة كذلك: «طريانَ تفتك، وإشبيليَ تَغْرَم الجُعْل»، والمقصود بها مدينة طريانة الموجودة على شاطئ الوادي الكبير في مقابل إشبيلية، والجعل الأجر [218]. وقد ذكر الحميري ما يشبه هذا المثل بقوله: «إشبيلية تفتك، وطريانة تؤدي الجعل»، ويبدو أن الرواية

214- 117. ابن فركون، ديوان ابن فركون: 136.

215- ابن سعيد، المغرب: 349 /1 . 10/2 . أبو الفداء، تقويم البلدان: 177.

216- ياقوت الحموي، معجم البلدان: 195.

217- الزجالي، ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام: 2 / 235. (مثل رقم 1036).

218- م.ن: 2/ 242(مثل رقم 1050). ابن سعيد، المغرب: 1 / 214.

الأخيرة أصح. وأما غرم أو تأدية طريانة الجُعَل فمرده إلى أنها كانت من منتزهات الإشبيليين على الوادي الكبير، وكان المعتمد بن عباد فرض على أهلها الاعتناء بتجميل الجهات الواقعة على النهر التي يرتادها أهل النُّزه الإشبيليين [219].

ويعتبر «قصر الحمراء» بغرناطة النصرية نموذجا للمعمار المفعم بدلالات ناطقة بأهمية الطوبونيميا المائية حسب ما تكشف عنه المصادر المكتوبة؛ فقد تضمن جناحين كبيرين، «جناح قمارش» الذي يتوسطه صحن مستطيل، توجد في وسطه بركة مائية تحفها أشجار الريحان التي سمي بها، فنعت لذلك بـ«Patio Arrayanes» ؛ و«فناء الأسود» الذي يشتمل على حوض يعود لفترة حكم أبي عبد الله محمد الثالث (701-708هـ/1301 - 1308م)، وسمي بذلك نسبة إلى الأسود الثلاثة عشر التي تحيط بالنافورة [220]. كما توفر على قاعة «بني سراج Sala de los Albencerrajes» نسبة للأسرة الأندلسية الشهيرة، والتي كانت تتوسطها بركة ذات نافورة مصنوعة من المرمر. ونافورة «قاعة اللندرخا Miradar de lindaraja» بقصر الحمراء نفسه [221]، علاوة على النافورة التي كانت تتوسط قصر الحراسة الوطني بشنترة، الذي يعود إلى القرن 8 هـ/14م [222].

219- الحميري، صفة جزيرة الأندلس: 127.

220- مانويل مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا: 214، 224، 324. عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية: 193 - 194، 198 - 200. محمود عبد العزيز سالم، قصر الحمراء، مجلة المجلة، ع-13 1985م: 115 - 118.

221- عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية: 203- 205، 211.

222- م.ن: 424.

أما مسجد إشبيلية وقرطبة فعرف صحناهما لدى المسيحيين بـ«فناء النارنج»، و«فناء البرتقال Patio de los Naranjos»، لإحاطة تلك الأشجار بالبركة والنافورة المتوسطتين للفناء[223].

ومن المنازل المتبقية آثارها بالأندلس، والتي تدل على أهمية الماء في الطوبونيميا الأندلسية، «منزل خيجانتي la Casa del Gigante» برندة، نسبة للأسرة التي تملكه، وكان يعرف في المرحلة النصرية بـ«قصر أبي مالك»، أحد أبناء السلطان أبي الحسن المريني[224]، ويوجد بجوار الكنيسة الكبيرة في درب ضيق، وله صحن تتوسطه بركة مربعة تفور بماء بئر[225].

كما ارتبطت أبواب أخرى بالحِرَف والصنائع التي كانت تقام عندها، وهي صنائع ارتبط بحاجتها إلى الماء، ولذلك نجد أحد أبواب غرناطة يسمى بـ«باب الفخارين»، وموقعه اتجاه القرية المسماة بـ«الفخار» شمالي المدينة، ويسمى الموضع اليوم «Alfacar»[226].

أما بخصوص القناطر، وحسب ما تذكره المصادر فملحن الحديث عن «قنطرة القاضي»، التي يعود اسمها إلى القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن توبة من أهل غرناطة، الذي ولي القضاء لباديس بن حبوس، وتوفي بعد 540 هـ/1145م، والتي قامت بدور فعال في تزويد الحمراء بالماء خلال مدة حكم بني الأحمر، حيث مكنتهم من

223- م.ن: 49-23.
224- الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م: 3 / 122، 135.
225- عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية: 276.
226- ابن الخطيب، الإحاطة: 1 / 194.

اتخاذ غرناطة عاصمة لدولتهم [227]، وتعد بذلك إحدى القناطر الخمس بغرناطة، التي ربطت بين النوى المشكلة للمدينة على نهر حدرة؛ فالوادي المذكور كان يمر بضاحية الحاضرة النصرية (فيدخلها على باب الدفاف بشرقيها يشق المدينة نصفين، ... وعليه بداخلها خمس قناطر، وهي قنطرة ابن رشيق، وقنطرة القاضي، وقنطرة حمّام جاش، والقنطرة الجديدة، وقنطرة العود) [228].

وارتباطا بالماء نذكر الحمامات، التي حملت أسماء متعددة الدلالات؛ فبجيان الأندلسية عرف «حمام ابن اسحق»، الذي كانت (تسقى بفضلته بسائط عريضة) [229]، وحمام الثور، وحمام الولد، وحمام ابن السليم، وحمام ابن طرفة، وحمام ابن إسحق، وحمام حسن [230]. وبقرطبة وجد حمام الإلبيري [231]، وحمام أبي الخير بإشبيلية [232]. وحمام عبد الرحمن المعافري، وحمام الجوز، والحمام الصغير، وحمام جاش، وحمام أبي العاصي بغرناطة [233]، وحمام اليهود ببسطة [234]، وحمام الخندق بالمرية [235].

230- م.ن: 70 - 71.

231- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1968م: 1 / 466.

232- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الفكر، بيروت، 1376هـ/ 1956 م: 3/ 1 / 108.

233- ابن الزبير، صلة الصلة: 3 / 174. ابن الخطيب، الإحاطة: 1/483. 3/524. العمري، مسالك الأبصار: 156. القلقشندي، صبح الأعشى : 5/215. مانويل مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا: 309.

234- مانويل مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا: 316.

235- ابن القاضي، جذوة الاقتباس: 1/ 294.

أما بالمغرب الأقصى فنذكر «حمام عمرو بن العاص» بين فاس وتلمسان [236]، وحمام أغلان، وحمام قرطبة، وحمام الرحبة بفاس [237].

وبسبتة الإسلامية وجد (اثنان وعشرون حماما، ... أعظمهما هيكلا وأشهرها ذكرا حمام قائد، وهو القائد أبو علي ناصح، الذي كان بناؤه على يده، ... وهذا الحمام بلغ الغاية في الكبر، يسع المئين من الناس، مرتفع السمك طيب الهواء، قائم على أعمدة الرخام، مفروش بألواحه الساطعة البياض، والمسلخ متسع الساحة له بابان اثنان، وسقفه قبة مرتبة متقنة على أربع حنيات، وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض، وفي وسط الصهريج سارية مجوفة فوقها طيفور من الرخام الموصوف يصعد الماء في جوفه السارية إلى أن يفور في الطيفور، وفيضه يملأ الصهريج).

إضافة إلى (حمام ابن عيسى وهو أحد الحمامين المبرزين بزقاق ابن عيسى)، و(حمام اليانشتي، وحمام عيود بناحية الميناء). وبـ(القصبة عشرة حمامات، ... أبدعها حمام القصر. وهذا بكل من ديار سبتة حمام ومسجد إلا قليل، ولقد كان بمنزلنا حمامان اثنان) [238]، إضافة إلى حمام خالد [239].

236- البكري، المغرب: 142.

237- م.ن: 115، 124، 133. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1985م: 196. ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ط1، 1404هـ/1984م: 196.

238- مؤلف مجهول، اختصار الأخبار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1403هـ/1983م: 34 - 35.

239- البكري، المغرب: 103.

ومن المظاهر الأخرى للطوبونيميا المائية ما سميت به باقي المرافق الأخرى، كدور الوضوء العمومية، مثل «ميضأة أبي الوليد» بـ«باب العطارين» بقرطبة [240]. وأبواب المدن؛ مثل «باب المرضى» بغرناطة الذي كان يسكن خارجه الجذمى وغيرهم من ذوي الأمراض المعدية [241]، طلبا لحماية ماء المدينة من التلوث.

وهكذا توضح هذه النماذج -وغيرها كثير- قدرة تداخل العلوم والمعارف والمناهج على توسيع آفاق البحث العلمي، وتحطيم جدران التخصص الدقيق الذي طالما اعتز به البعض، في وقت يؤكد العمل التشاركي والموسوعية في البحث أهمية النتائج الممكن تحقيقها. وما حاولنا إثباته هنا هو مجرد نموذج متواضع على فعالية ما يمكن أن تقدمه المصادر التاريخية المكتوبة من معلومات أصيلة تفيد الباحث الطوبونيمي في تعزيز مادته المصدرية.

**

240- ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989م: 2 / 449

241- النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1403هـ/1983م: 89. العمري، مسالك الأبصار: 157. الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه محمد حجي وآخرون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م: 6 / 422. مؤلف مجهول، نبذة العصر : 44.

جوانب من التراث المادي للغرب الإسلامي من خلال الدلائل الطوبونيمية والمعطيات الأركيولوجية.

د. عبد اللطيف الخمار

يشكل مبحث الطوبونيميا مصدرا أساسيا من المصادر التي يعتمد عليها الباحث الأثري في دراسته الأركيولوجية لمجال جغرافي معين. فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بعلم الآثار ويساهم بمناهجه و طرق البحث التي يرتكز عليها في إثراء المعرفة الأثرية وفي تتميم المعطيات الواردة في المصادر النصية بمختلف أصنافها وأشكالها. كما يستند المتخصصون في مجال الطوبونيميا إلى نتائج الأبحاث الأركيولوجية في دراساتهم اللسنية والفيلولوجية، وذلك من أجل إغناء استنتاجاتهم وسد بعض الثغرات أو تصحيح بعض الأخطاء التي قد تتخلل أبحاثهم. فعلاقة الأركيولوجيا بالطوبونيميا هي علاقة جدلية جد وطيدة، إذ كلاهما يحتاج إلى الآخر لتأسيس معرفته على أسس علمية بحتة، ولا يمكن لأي واحد منهما أن يغيب الآخر ويعمل بمعزل عنه.

وعلى الرغم من الدور الذي تضطلع به الطوبونيميا في إنارة مجموعة من الجوانب المعتمة من الدراسات الأثرية الخاصة بمنطقة الغرب الإسلامي، إلا أن الاهتمام بهذا الفرع من علم اللسانيات يبقى محدودا جدا ولا يرتقي إلى المستوى المطلوب في هذا المجال الجغرافي الذي يزخر بتراث طوبونيمي غني وكفيل بنفض الغبار عن مجموعة

من الأوجه المظلمة لتاريخ المنطقة ككل. وسنحاول من خلال هذه المساهمة العلمية المتواضعة أن نسلط الأضواء على البعض من جوانب هذا الموضوع الشائك الذي يحتاج إلى العديد من الأبحاث التركيبية للإحاطة به والإجابة على الإشكالات المحورية التي يطرحها.

المحور الأول: طوبونيميا المدن والمواقع الأثرية-ملاحظات عامة

من خلال تفحصنا لأسماء المدن والقرى العتيقة والمواقع الأثرية المختلفة، يبدو أن اختيار هذه الأسماء لم يكن اعتباطيا أو من قبيل الصدفة، بل يأخذ أصوله من أحداث أثرت بشكل قوي على ذاكرة المكان، ذات طبيعة تاريخية، أنثروبولوجية، إثنولوجية ودينية...أو من خصوصيات طبيعية تميزه عن غيره ومرتبطة بالتضاريس أو الأنهار والمجاري المائية أو الغطاء النباتي...فالعديد من المدن الوسيطية كانت أو لا زالت تحمل اسم لقبيلة ما أو فرع منها كمكناس (قبيلة مكناسة)، والقصر الصغير (قصر مصمودة) والقصر الكبير (قصر كتامة)، وتحيلنا بذلك على استقرار هذه القبائل بالمدن السالفة الذكر وعلى تحركاتها المجالية بالمغرب. كما أن مجموعة من المدن والقرى تأخذ تسميتها من أسماء بعض الصلحاء المرموقين الذين دفنوا بها كمولاي ادريس زرهون ومولاي بوعزة بإقليم خنيفرة (نسبة لأبي يعزي يلنور) وسيدي بومدين (ضواحي تلمسان) ومولاي بوسلهام. في حين أن البعض

242- LAOUST Emile, «Contribution à une étude de la toponymie du Haut Atlas », Revue des Etudes Islamiques, III-IV, 1939, p. 109-196.

الآخر من المدن و المواقع الأثرية يقتبس أسماءه من المجال الطبيعي الذي يوجد به كأكرسيف (إسم أمازيغي يعني مابين نهرين) وأزيلال (إسم أمازيغي يعني فج بين جبلين) وتاوريرت (تعني التل بالأمازيغية) وأزمور (إسم أمازيغي لنوع من أشجار الزيتون) [242] ووليلى (إسم لنبات كان ينمو بهذه المدينة القديمة) وحجر النسر (موقع أثري إدريسي).

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن مجموعة من المواقع الأثرية التي تعود إلى الفترة ما قبل إسلامية قد نقلت أسماؤها إلى المدن أو القرى المحاذية لها والتي بنيت خلال العصر الوسيط. فمدينة طنجة الإسلامية اقتبست اسمها من مدينة طنجي القديمة Tingi التي كانت تحتل مكانة جد متميزة في تاريخ المغرب القديم. كما أن مدينة سلا والموقع المريني لشالة أخذا اسمهما من مدينة سلا كولونيا Sala Colonia الرومانية التي توجد بقاياها الأثرية داخل الأسوار المرينية لشالة. نفس القاعدة تنطبق أيضا على قرية تامدة بنواحي مدينة تطوان، التي سميت بنفس الاسم الذي يحمله موقع تامودا Tamuda القديم (تامدة تعني بالأمازيغية البحيرة). كما أن وليلى حافظت على اسمها القديم خلال فترة حكم الأدارسة الذين استقروا بهذه المدينة خلال البدايات الأولى لدولتهم قبل رحيلهم فيما بعد إلى فاس. كما أن اسم مدينة سطيف الإسلامية بالمغرب الأوسط يستمد أصوله من مدينة سيطيفيس القديمة.

من جانب آخر، فإن مجموعة من المدن لم تحافظ على أسمائها الأصلية وحملت عبر تعاقب الفترات التاريخية مجموعة من الأسماء، كما هو الشأن بالنسبة لمدينة القصر الكبير التي كانت تسمى بسوق

كتامة وقصر بن عبد الكريم، وأيضا بالنسبة لمدينة القصر الصغير التي كانت تسمى من ذي قبل بقصر مصمودة، وكذلك بالنسبة لمدينة الجديدة التي كانت تحمل اسم البريجة وإسم مازاكان خلال فترة الاحتلال البرتغالي للمدينة. فكل اسم من هذه الأسماء يحيل على فترة تاريخية معينة و يحمل في ذاته قيمة كرونولوجية، وهو يخضع بذلك إلى نفس المنطق المتبع في مناهج الحفريات الأركيولوجية. فتعاقب الأسماء الواحد تلو الأخر يشكل طبقات تاريخية متراكمة، وهي بذلك تحاكي إلى حد ما في منطقها الداخلي المنهج المتبع في دراسة الطبقات الأثرية أو الترسبات الجيولوجية. ولعل الدراسة الدقيقة والمفصلة للميكانيزمات المتحكمة في تطور وتغير المعطيات الطوبونيمية الخاصة بمجموعة من المدن والمواقع الأثرية لكفيل بسد مجموعة من الثغرات التي قد يشكو منها البحث الأركيولوجي.

243-قام الباحث المغربي العربي الرباطي بمجموعة من الأبحاث التاريخية و الأثرية حول موقع أغمات، و خصص جزءا مهما من إحدى مقالاته لاستعراض أهم النتائج التي توصل إليها بخصوص هذه المدينة الوسيطية: و تجدر الإشارة إلى أن هذا الباحث الأثري لا زال يواصل تحرياته الأركيولوجية في هذا الموقع الإسلامي إلى جانب الباحث المغربي عبد الله فيلي و الباحث الأمريكي رونالد ميسيي Ronald Messier. و من المنتظر أن تنشر النتائج الأولية لهذه الأبحاث الأثرية في وقت قريب جدا.

244- أنظر المقالة التي قام بتأليفها الباحث الفرنسي برنار روزنبيرجي Bernard Rosenberger

Bernard Rosenberger, «Tamdult, cité minière et caravanière pré-saharienne (IXe-XIVe siècles) », Hespéris Tamuda, XI, 1970, p. 103-140.

245- أحمد الطاهري، فصول منسية من تاريخ المغرب: إمارة بني صالح في بلاد نكور، الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1998.

«Archéologie Marocaine», XV, 1983-1984, p. 339-343.

- Erbati Larbi, « La naissance de la ville islamique au Maroc (Nakur, Aghmat, tamdult) : approche archéologique du site archéologique de Nakur », 'Archéologie et du Patrimoine. Volume 3 : Archéologie islamique, SMAP, Rabat, 2001, p.108-129.

إذا أمعنا النظر في طوبونيميا المواقع الأثرية والمدن الإسلامية الوسيطية، نجد أن الأغلبية الساحقة منها تحمل أسماء أمازيغية، وهذا دليل قاطع على صمود الإرث اللسني والثقافي الأمازيغي في وجه حملات التعريب التي عرفتها المنطقة ككل منذ فترة الفتح الإسلامي.

ففي المراحل الأولى للإسلام، جل المدن التي يعود تاريخ تأسيسها إلى هذه الحقبة التاريخية تحمل أسماء أمازيغية: أغمات [243]، إكلي، تامدلت [244]، وليلى، نكور [245]، تارغا، تيجساس. فعلى الرغم من أن المغرب كان خاضعا لحكم مجموعة من الإمارات العربية (إمارة بني صالح ببلاد نكور، إمارة بني مدرار الصفرية بسجلماسة [246]، والأدارسة بمجموعة من الأماكن كوليلى، فاس، تامدلت والشمال الغربي للمغرب الأقصى)، إلا أن حركة تعريب طوبونيميا المدن والقرى ظلت جد محدودة، واقتصرت على بعض المراكز التي أسست من قبل الأدارسة كالبصرة [247] وحجر النسر بشمال المغرب الأقصى. ولم يقتصر تعريب هذين الموقعين على مستوى أسمائهما، بل تجاوزه ليشمل تصميمهما المعماري وتقنيات بنائهما.

فتبعا للحفريات المتعددة التي أجريت بموقع البصرة، فإن هذه المدينة كانت محاطة بسور من الحجر ومحصنة بمجموعة من الأبراج ذات شكل نصف دائري، وكانت تضم بداخلها مسجد وحمامات وأسواق

246- «Archéologie Marocaine»., XIX, 2002, p. 257-292.

247- تقع مدينة البصرة في منطقة الغرب على الطريق الرابطة بين مدينتي سوق الأربعاء الغرب و وزان، و تبعد حوالي 20 كلم جنوب مدينة القصر الكبير.

وفضاء واسع لممارسة العديد من الحرف. ويجمع العديد من الباحثين الأثريين كالفرنسي باتريس كريسيي Patrice Cressier على أن هذه المدينة الإدريسية قد تأثرت بالطابع العربي المشرقي في طريقة تهيئتها وبنائها وفي شكلها المعماري [248]. أما فيما يخص حصن حجر النسر، فقد أكدت البعثة الأثرية المغربية الفرنسية التي قامت بدراسته على أن تصميمه وشكله المعماري يحاكي إلى حد كبير الحصون الإسلامية الموجودة بشرق الأندلس وأثبتت بدلائل أركيولوجية أنه ينهل من معين المدرسة الأموية الأندلسية في طريقة بنائه [249]. ولم يقتصر انتشار هذا الطراز المعماري في المناطق التي عرفت تعريبا على مستوى أسماء أماكنها، بل توسعت دائرة انتشاره في المناطق الشمالية الأخرى التي حافظت على أسمائها الأمازيغية، وبصفة خاصة في منطقة جبالة-غمارة كتارغا وتيجساس [250]. فمعمار المدن والقرى الواقعة بهذه المنطقة تأثر بشكل كبير بالخصوصيات المعمارية الأموية الأندلسية نتيجة للهجرات المبكرة للأندلسيين إلى شمال المغرب. كما نلمس هذا التأثير في جامع

248- «archéologie Marocaine», XV, 1983-1984, p. 320-332. Occidente. éd. Benco, N., S. Ennahid, M.J. Blackman, H. Neff, M. Glascock, and R.J. Speakman, «Chemical analyses of pottery and clays from the medieval Islamic city of al-Basra and its hinterland in northern Morocco», In J. Zozya, ed., Proceedings of the VIII International Congress of Medieval Ceramics in the Mediterranean, 2007.

249- CRESSIER Patrice, EL BOUDJAY Abdelatif, EL FIGUIGUI Hassan et VIGNET-ZUNZ Jacques, «Ḥağar al-nasr, capitale du Maroc septentrional : archéologie et histoire (IVe h./Xe ap.J.-C.) », Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental, (Casa de Velázquez et C.S.I.C.). Madrid. 1998, p. 305-334.

250- Bazzana A., Touri A., Cressier P., Erbati E. et Montmessin Y. «'archéologie médiévale et islamique dans le nord du Maroc (Chefchaouen, Oued Laou, Bou Ahmed) »'Archéologie Marocaine, XV, 1983-1984, p. 367-450.

القرويين بفاس الذي يشابه الجامع الأموي بدمشق فيما يتعلق بطريقة تصميم وتوجيه بلاطاته، كما خضع بالإضافة إلى ذلك إلى تأثير الجامع الأعظم بالقيروان فيما يخص شكل وطريقة بناء مناره [251]. ويرجع سبب هذه التأثيرات المشرقية في العمارة إلى استقرار وفود أندلسية وقيروانية بمدينة فاس خلال الفترة الإدريسية.

خلال المراحل اللاحقة من العصر الوسيط، ظل الإرث الطوبونيمي الأمازيغي متجدرا في الذاكرة الجماعية للناس La mémoire collective رغم حملات التعريب التي شملتها أرجاء واسعة من بلاد المغرب، والدليل على ذلك أن مجموعة من المدن الكبرى المغربية أخذت أسماء أمازيغية كمراكش، آسفي، تيطاوين (تطوان) وتازة. كما يبرز الطابع الأمازيغي أيضا في طوبونيميا بعض الحصون والبلدات كتاسغيموت [252] (العهد المرابطي)، رباط تيط [253] وتينمل [254] (العهد الموحدي). ويسود هذا الطابع بشكل كبير في جنوب المغرب، وبصفة خاصة في القرى والبوادي التي حافظت على جزء جد مهم من خصوصياتها المحلية ولم تخضع إلا بشكل باهت وضعيف للتأثيرات المشرقية الأندلسية. وهذا ما نلمسه في عمارة بعض المباني المحلية

251- TERRASSE Henri, La grande mosquée Al-Qaraouiyin à Fès, Paris, 1968. 252- CRESSIER Patrice et ERBATI Larbi, « Note sur la forteresse almoravide du Tâsghîmût », Archéologie Islamique, 8-9, 1998-99, p. 55-66.

253- BASSET Henri et TERRASSE Henri, Sanctuaires et forteresses almohades…. p.337-376.

254- - BENSLIMANE J.H., EWERT Ch., TOURI A. et WISSHAK J.P. (1981-1982), « Tinmal 1981, fouilles de la mosquée almohade », «épopée almohade», Rabat, 1992.

الأمازيغية كأكادير وإغرم وتاسكدالت. فأكادير (الجمع: إيكودار، التصغير: تاكاديرت) هو عبارة عن قصبة مبنية على مرتفع و محصنة بسور منيع وأبراج، وتتوفر هذه القصبة بداخلها على بيوت ودور لتخزين المؤن والمحاصيل الفلاحية. وبالإضافة إلى هذه الوظيفة الأساسية، يستعمل أكادير أيضا كحصن وكمركز حماية خلال فترات الفتنة والحروب [255]. أما «إغرم» (الجمع: إغرمان، التصغير: تيغرمت) فهو بناء محصن من التراب ويشابه أكادير في شكله وبنائه ووظيفته Grenier collectif fortifiée، وينتشر بصفة خاصة في المنطقة الجنوبية الشرقية للمغرب [256]. تأثر إغرم في شكله المعماري بطريقة البناء السائدة في المناطق شبه القاحلة والتي تعتمد بالأساس على تقنية الطابية (التابوت أو اللوح) وعلى مواد بناء محلية والتي تتشكل بالأساس من التراب. كما يتسم هذا النوع من المعمار المبني بالتراب بغياب كلي للزخرفة النباتية والكاليغرافية وبسيادة الأشكال الزخرفية الهندسية Le décor géométrique، وهذه سمة من السمات الأساسية التي تميز الفن الأمازيغي. وإغرم هو عبارة عن حصن يتوسطه فناء مربع الشكل ومحاط بسور ضخم ومزود في زواياه الأربعة بأبراج عاتية والتي تتميز بشكل شبه هرمي (القاعدة أكثر اتساعا من القمة). كما يتوفر الطابق السفلي من هذه البنايات العشائرية على عدد كبير من البيوت الخاصة

255- LAOUST Emile. «Contribution à une étude de la toponymie du Haut Atlas »..., p. 270. Université Lumière Lyon II, 2003, p. 110-112.

256- LAOUST Emile. «Contribution à une étude de la toponymie..., p. 270-271.

بخزن المؤن والمحاصيل الزراعية والتي تتوزع في الجهات الأربع المحيطة بالفناء المربع الشكل [257].

فيما يخص «تاسكدالت»، فهي عبارة عن قصبة محصنة، توجد في غالب الأحوال في مكان عال يتميز بصعوبة التضاريس ووعورتها. وتكون محصنة إما بعناصر طبيعية كالصخور أو بأسوار منيعة مدعمة بأبراج. وحسب المعلومات النصية التي نتوفر عليها إلى حد الآن فإن أقدم الحصون المسماة «تاسكدالت» يوجد في الضواحي القريبة لمدينة سجلماسة، ويعود تاريخ بنائه إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجري على الأقل، وبالضبط إلى ما قبل سنة 347هـ. وفي هذا الصدد، يقول أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك: «... وكان محمد بن الفتح سنيا على مذهب المالكية يحسن السيرة ويظهر العدل إلا أنه تسمى بأمير المؤمنين سنة اثنتين وأربعين وتلقب بالشاكر لله وضربت بذلك الدراهم والدنانير فمكث كذلك إلى أن قربت منه عساكر ابن تميم معه قائده جوهر الكاتب فخرج عن سجلماسة بأهله وماله وولده وخاصته وصار بتاسجدالت حصن منيع على اثني عشر ميلا من سجلماسة ودخل جوهر سجلماسة وملكها وذلك سنة سبع وأربعين وثلاث مائة وخرج محمد من الحصن في نفر يسير من أصحابه إلى سجلماسة ليتعرف الأخبار مستترا» [258]. وقد عاين الباحث الاستعماري الفرنسي شارل دوفوكو Charles DE FAUCOULT البقايا الأثرية لقصبة تعرف باسم تاسكدالت بضواحي مدينة الرشيدية ووصفها بشكل جد

257- «habitation chez les transhumants du Maroc Central », Hespéris, XVIII, 1934, p. 109-196.
258- «Orient», Paris, 1965, p. 151.

مختصر في كتابه الشهير La Reconnaissance du Maroc [259]. ومن المرجح جدا أن تكون تاسكدالت التي عاينها هذا الباحث الفرنسي خلال القرن التاسع عشر هي تلك التي ذكرها البكري في المسالك والممالك وحدد موقعها على بعد 12 ميلا من سجلماسة. وفي منطقة حاحا، تحدث الحسن بن الوزان في مؤلفه وصف إفريقيا عن مدينة صغيرة على شكل حصن تحمل اسم تاسكدالت، وهي تقع على جبل عال بالقرب من واد إغرونزار وجوانبها محاطة بتحصينات طبيعية مشكلة أساسا من صخور بارزة و ناتئة [260]. ولا يوجد حاليا، حسب إيبولار Epaulard، أي أثر مادي لهذه المدينة-الحصن، إذ لم يبق من ذكراها إلا الاسم الذي تعرض لبعض التحريف «للا تاسكديت» وأصبح يطلق على الجبل الذي شيدت عليه [261]. ولم ينحصر وجود هذا النوع من الحصون في المناطق الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية للمغرب الأقصى، بل شمل بقاع أخرى من الغرب الإسلامي كموستغانم ووهران بالمغرب الأوسط [262].

ولم يقتصر الإرث الطوبونيمي الأمازيغي على منطقة المغرب الكبير، بل انتشر أيضا بالضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، وبالضبط في الأندلس التي لا زالت العديد من قراها تحتفظ بأسماء أمازيغية. ففي منطقة الثغر الأعلى، أثبت الباحث الفرنسي فيليب سيناك Philippe

---

259-«habitation chez les transhumants du Maroc Central»..., p.119-120.
260- « Orient », Paris, 1981, p. 79.
261- Ibid, note 35.
262- Laousi Emile, «l'hanitation chez les transhumants du Maroc Central p. 119.

Sénac وجود مجموعة من الأسماء الأمازيغية من خلال الأبحاث الأثرية التي قام بها بنواحي كل من سرقسطة وHuesca هويسكة [263]. ففي ناحية سرقسطة، لا زالت بلدة هناك تحمل إسم Mequinenza (ميكيننسة)، مما يدل على استقرار فرع من قبيلة مكناسة الزناتية بالثغر الأعلى، ويؤكد بذلك صحة الروايات التاريخية القائلة بأن هذه القبيلة قد انقسمت إلى ثلاث فروع: الفرع الأول هو الذي أسس مكناسة الزيتون، والفرع الثاني استقر بناحية تازة وهذا ما تثبته المعطيات الطوبونيمية، أما الفرع الثالث الذي نحن بصدد الحديث عنه فقد هاجر إلى الثغر الأعلى بالأندلس. أما في ضاحية Huesca، فهناك حضور لاسم «زناتة» الذي لا زال مترسخا في الذاكرة الجماعية للسكان، وهذا دليل قاطع على مدى تأثير هذه القبيلة في ثقافة ونمط عيش منطقة الثغر الأعلى ككل. إلى جانب هذه الأسماء الأمازيغية، فإن مجموعة من البلدات والحصون الإسلامية بمنطقة ليريدة Lérida بالثغر الأعلى لا زالت تحتفظ بأسمائها العربية: Albelda (البلدة)، Alcolea (القليعة)، Calasanz (قلعة زنج) و Masalcorreig (منزل قريش) [264]. ولعل وجود هذه الرواسب اللسنية والبقايا الطوبونيمية بهذه المنطقة لمؤشر واضح على وجود قواعد حربية أمامية للمسلمين بشمال الأندلس، وعلى إقامتهم لحدود دفاعية Frontières défensives للفصل بين الأراضي الخاضعة لسيطرتهم وتلك التي كانت تخضع للسلطة السياسية والعسكرية لنصارى الأندلس.

263- Velázquez, Tome XXIV, 1988, p. 64-65.
264- Ibid., p. 64-69.

أما في منطقة شرق الأندلس، فقد أكد الباحث الفرنسي بيير غيشارد Pierre Guichard على صمود واستمرار تداول الطوبونيميا الأمازيغية في مجموعة من القرى و المواضع [265]. فتبعا لهذا الباحث، فإن اسم قبيلة صنهاجة يتردد بصيغ مختلفة بمنطقتي بلنسية و القنط Alicante: Ceneja، Seneja، Senija و alçinhegin (الصنهاجيين). كما عثر نفس الباحث على العديد من الأسماء التي تثبت استقرار قبيلة زناتة بهاتين المنطقتين الأندلسيتين (Atzeneta، Atzaneta، Atzenata و Adzaneta) وعلى مجموعة من أسماء الأماكن التي تؤكد الحضور القوي لقبيلة زواوة بناحيتي بلنسية وكاستيون :zubeba، Azueva و Zuveva. ووجد أيضا ساقية بمنطقة بلنسية تحمل اسم Acequia de Favara ، أي ساقية هوارة. وقد اعتمد بيير غيشارد على تحليل تاريخي وفيلولوجي قويم ومنهجي ليصل إلى أن Favara هو الاسم الذي احتفظت به الذاكرة الجماعية الأندلسية لنعت قبيلة هوارة. ومما يؤكد هذا الطرح هو وجود أسماء لبعض فروع هذه القبيلة في طوبونيميا شرق الأندلس مثل Micleta (مكلاتة) و Melilla (مليلة) [266]. كما أن المصادر التاريخية الوسيطية تؤكد هذه المعطيات وتثبت هجرة مجموعة من القبائل الأمازيغية كمديونة وزواوة وهوارة (مليلة، مكلاتة و مسلاتة) وزناتة وصنهاجة وهسكورة من العالم المغاربي إلى منطقة شرق الأندلس (مرسية، شاطبة و بلنسية) خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي

265- GUICHARD Pierre, «La toponymie tribale berbère valencienne : réponse à quelques objections philologiques », Festgabe fur Hans-Rudolf Singer, Sonderdruck, 1991, p. 125-141.

266- Ibid.

للأندلس وإلى غاية العصر الموحدي [267]. فلا يمكننا إذن أن ندرس تاريخ وآثار المدن والقرى الأندلسية بمعزل عن المغرب الكبير الذي ساهم بشكل كبير وفعال في إثراء الثقافة الأندلسية وفي طبعها ببعض الخصوصيات الأمازيغية، وبصفة خاصة في المجالات الفنية والمعمارية، كما أن دراسة تاريخ و أركيولوجية الضفة الجنوبية من الغرب المتوسطي يقتضي بالضرورة القيام بنفس المجهود لتحديد المؤثرات الأندلسية على المجال المغاربي.

يبدو جليا من خلال هذه الدلائل الطوبونيمية التي أثبتتها التحريات الأركيولوجية أن الوجود الأمازيغي كان حاضرا بشكل قوي وملحوظ بشرق الأندلس، وذلك من خلال استقرار بعض المجموعات القبائلية كصنهاجة وزناتة وهوارة وزواوة بهذه المنطقة. وقد كان لهذا الحضور الأمازيغي أثر كبير على الثقافة الأندلسية، وهذا ما أكدته الدراسة الأثرية التي قامت بها الباحثة الفرنسية ماري كريستين دوليك Marie Christine Delaigue على بعض الأواني الخزفية التي عثر عليها في بعض المواقع الأركيولوجية بمنطقة بلنسية [268]. فقد أثبتت هذه الباحثة وجود العديد من التأثيرات الأمازيغية في طريقة زخرفة هذه الأواني. والمتمثلة أساسا في طريقة التزيين بالصباغة Le décor peint وفي الهيمنة الكبيرة للأشكال الهندسية Le décor géométrique. على أن هذا النوع من الزخرفة يتميز بوجود تركيبات هندسية متعددة

267- Ibid.
268- Archéologie Marocaine, 1983-1984, p. 493-522.

كالخطوط الأفقية أو العمودية المتوازية والخطوط المائلة المتوازية وشبكة المعينات المتداخلة فيما بينها وشبكة الدوائر. كما تتسم هذه الزخرفة بتغييب كلي للكتابة وللعناصر النباتية والحيوانية، ويغلب عليها تنظيم هندسي محكم يعتمد على تماثل الأشكال La symétrie des formes كأساس له. وهي تحاكي إلى حد كبير الزخرفة المصبوغة التي كانت تستعمل لتزيين الأواني الخزفية الأمازيغية في العصور الممهدة للتاريخ La Protohistoire[269]. ولعل دراسة عينات من هذه الأواني الخزفية في المختبرات الخاصة بالخزفLaboratoires de céramologie لكفيل بإثارة مجموعة من الجوانب المعتمة من الثقافة المادية La culture matérielle للأندلس وللضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. كما يمكن تدعيم وتتميم المعطيات المختبرية بأبحاث إثنوغرافية لتعميق وإثراء معرفتنا الخاصة بطرق ومناهج صنع وزخرفة الخزف التقليدي.

يتضح من كل ما سبق أن الدراسة الطوبونيمية لا تفيدنا لوحدها في معرفة ما إذا كانت بعض المناطق قد حافظت على خصوصياتها الثقافية البحتة أو عرفت تأثيرات خارجية، لذلك فإن هذه الدراسة لا يمكنها أن تأخذ طابعا شموليا إلا إذا استندت إلى نتائج الأبحاث الأثرية والتاريخية من أجل تتميم معلوماتها. أخذا بالاعتبار مجموع الصعوبات المنهجية التي قد تعترض سبيل المؤرخين والأثريين أثناء قيامهم بعملية تحديد أسماء الأماكن. فمجموعة من هذه الأسماء تهاجر مع مرور الزمن من موضع لآخر وتتعرض لتحريفات وتطورات

269- Ibid., p. 497-519.

في شكلها المورفولوجي، تارة من قبل ساكنة المنطقة، وتارة من قبل النصوص المكتوبة، وتارة بسبب الهفوات التي قد تحصل من قبل واضعي الخرائط الطبوغرافية و التصاميم المعمارية. ففي جل بلدان المغرب الكبير، معظم الوثائق الكارطوغرافية تعتمد على اللغة الفرنسية لتوطين أسماء الأماكن، مما يؤثر سلبا على هذه الأسماء التي تفقد الكثير من هويتها الذاتية و تتعرض من جراء ذلك لتحريفات على المستويين اللفظي والدلالي. نفس الشيء ينطبق أيضا على الطوبونيميا العربية والأمازيغية بالأندلس التي تعرضت لتغيرات وتحريفات متعددة مع مرور الزمن بسبب الانتقال من اللغة العربية إلى اللغات المحلية (القشتالية، الكطالانية)، مما يعقد من مأمورية الباحثين الأثريين ويجعلهم مضطرين لاعتماد التحليل الفيلولوجي والتاريخي لفك لغز بعض الأسماء. ولعل التحريف الذي طرأ على اسم قبيلة هوارة «Favara» لخير دليل على هذا النوع من الصعوبات المنهجية.

الفهرس

الفصل الثالث:

تأليف : تأليف جماعي

عنوان الكتاب : **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي إسهام في ضبط أسماء الأماكن مقدمات في الفهم والمنهج والعلائق**

رقم الإيداع القانوني : 2012Mo0229

ردمك : 978-9981-25-814-3

أفريقيا الشرق – المغرب

159 مكرر ، شارع يعقوب المنصور – الدار البيضاء

• المطبعة : الهاتف : 40 95 25 0522 / 13 98 25 0522 الفاكس : 20 29 25 0522

• النشر والتصفيف : الهاتف : 53 67 29 0522 / 54 67 29 0522

• الفاكس : 72 38 48 0522

البريد الإلكتروني : E.mail : africorient@yahoo.fr